المستعمرات الألمانية في فلسطين

للدكتور علي محافظة

(الجامعة الأردنية)

الغاية من هذا البحث دراسة المستعمرات الالمانية في فلسطين منذ تأسيس أولاها عام ١٨٦٨ وحتى نهاية الحكم العثماني عام ١٩١٨ . وتعالج هذه الدراسة الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية التي كانت وراء انشاء هذه المستعمرات ، ومدى صلتها بالمخططات السياسية الالمانية في الدولة العثمانية . كما انها تتناول طبيعة العلاقات بين المستعمرين الالمان والسكان العرب، من جهة ، وبينهم وبين المستعمرين اليهود، من جهة اخرى. وتستعرض أيضا موقف السلطات الرسمية العثمانية من هذه المستعمرات.

مشاريع استعمار فلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر :

فتحت حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام (١٧٩٨—١٨٠١) باب الصراع الدولي في الشرق العربي على مصراعيه . واطلقت العنان لمخططي السياسة الاستعمارية في أوروبا ، فقدموا مشروعات عديدة ترمي الى تجزئة الدولة العثمانية واقتسام ممتلكاتها ، في وقت بلغ الجشع الاستعماري ، مع انتشار الثورة الصناعية ، اوجه . وكانت فلسطين بحكم موقعها الجغرافي والاستراتيجي واهميتها الدينية هدفا لمخططي هذه

السياسة . فمنذ عام ١٨٠٠ نشر الكاتب البريطاني جيمز بيتشينو James Bicheno كتابا بعنوان The Restauration of Jews, the crisis of All Nations دعا فيه الى تجميع يهود العالم في فلسطين ، تحقيقا للنبوءات التوراتية ، وسعيا الى حل الأزمات التي تجتاح الدول المسيحية والدولة العثمانية . وعلق بيتشينو آمالا واسعة على فرنسا النابليونية لتحقيق هذا المشروع . غير أن مبادرة نابليون بجمع « مجلس أعلى » لليهود لاستغلاله كأداة سياسية ، منيت بالفشل . ولذلك اتجهت الأنظار الى الدول البروتستانتية (بريطانيا وبروسيا) لتحقيق هذا المشروع . ولقيت آراء بتشينو صدى واسعا في بريطانيا ، واعيدت طباعة كتابه السابق الذكر عام ١٨٠٧ (١) .

وقد اعجب بالفكرة اللورد آشلي Lord Ashley الذي أخذ يدعو لها منذ خريف عام ١٨٣٨ . وفي رايه أن جمع اليهود على أرض فلسطين سيكون خطوة أولى نحو تنصيرهم ، كما أن استعمار فلسطين ضرورة للاقتصاد البريطاني الذي شهد آنذاك ازدهارا وتوسعا نتيجة للثورة الصناعية . وبضغط من آشلي قبل قريبه اللورد بالمرستون Lord Palmerston رعاية عودة اليهود الى فلسطين وحماية الحكومة البريطانية للمقيمين منهم في الدولة العثمانية . وكان للكتاب الذي الفه اللورد ليندسي Lord Lindsay وصدر عام ١٨٣٨ بعنوان "Letters on Egypt, Edom and the Holy Land" * رسائل عن مصر وايدوم والأرض المقدسة" والذي تضمن تحبيذه لفكرة جمع اليهود في فلسطين ، صدى واسع في نفس اللورد آشلي . فقام الأخير بجمع الأموال لتنفيذ مشروع جمع اليهود على أرض فلسطين (٢) .

أثار المشروع اهتمام الحكومة البريطانية والصحافة اللندنية .

فقد تناولت صحيفة التايمز Times في عددها الصادر في ٢٤ كانون الثاني عام ١٨٣٩ الأفكار الرئيسية التي نادى بها آشلي وأيدت « حق الشعب اليهودي في العودة الى فلسطين » . وربطت المسألة اليهودية بالأزمة السياسية القائمة بين محمد علي باشا والسلطان العثماني (٣) . اما وزارة الخارجية البريطانية فقد اصدرت في ٣١ كانون الثاني ١٨٣٩ تعليماتها الى W. T. Young نائب القنصل المعين حديثا (١٨٣٨/٩/١٩) في القدس لبسط حمايته على كافة اليهود المقيمين في فلسطين (٤) .

ونشأت في الوقت نفسه حركة بين اليهود في بريطانيا تدعو الى استعمار فلسطين . ففي ربيع عام ١٨٣٨ زار موسى مونتفيوري (Moses Montefiore) (٥)، الثري والمحسن اليهودي، فلسطين ، وعرج على مصر لمفاوضة محمد علي باشا في مشروع يرمي الى تأجير منطقة الجليل (نحو ٢٠٠ قرية) له لمدة خمسين سنة ، وأن يدفع له مقابل ذلك اجرا سنويا. وكان في نية مونتفيوري أن ينشىء شركة استعمارية في بريطانيا ، في حالة موافقة محمد علي باشا على مشروعه ، من أجل تشجيع يهود أوروباعلى الهجرة الى فلسطين . غير أن مباحثات مونتفيوري مع محمد علي باءت بالفشل، عندما اكد والي مصر انه لا يستطيع التصرف بارض لا يملكها . واستمر مونتفيوري في نشاطه دون جدوى ؛ وزار فلسطين سبع مرات بين عامي ١٨٢٧ و ١٨٧٥ (٦) . كان مشروع مونتفيوري هذا مقدمة للمشروع الصهيوني الذي مرّ بمراحل عدة طوال القرن التاسع عشر .

وبعد جلاء قوات محمد علي عن بلاد الشام، اقترح هلموت فون مولتكه (Helmuth Von Moltke) الكابتن في الحرس الملكي البروسي، الذي عمل بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٣٩ في اعادة تنظيم الجيش العثماني (٧)، مشروعا آخر لاستعمار فلسطين . وورد هذا المشروع في مذكرات فون

مولتكه التى نشرها في صحيفة (Augusburger Allgemeine Zeitung) عام ١٨٤١ تحت عنوان : « المانيا وفلسطين "Deutschland und Palaestina" ».وقد شرح الضابط الالماني مشروعه هذا بتفاصيل دقيقة اثارت اهتمام الراي العام الالماني والأوروبي . وينص المشروع على انشاء « مملكة القدس » لتجعل من فلسطين مركزا متقدما للحضارة الأوروبية ، وانموذجا للتطور الاقتصادي في الشرق ، ودولة واقية بين مصر وسورية في حالة قيام مملكة وراثية في مصر ، تحول دون اي اعتداء على الدولة العثمانية ، وجسرا يربط أوروبا بالقارة الهندية . ويرى مولتكه ان قيام هذه المملكة سيكون بعثا للتقاليد والقيم الصليبية،ونصرا معنويا عظيما تحققه المسيحية في العالم . واقترح أن يكون على رأس هذه الدولة أمير الماني يتمتع بسلطة مطلقة، ويتّصف بروح متسامحة . فهو يرى ان اعتلاء أمير الماني لعرش مملكة القدس،سوف يبعد فلسطين عن تاثير المنافسات السياسية القائمة آنذاك بين الدول البحرية الأوروبية . كما ان تمتعه بسلطة مطلقة سيساعد في فرض النظام على بلد متخلف « لم يبلغ سكانه بعد مستوى حضارة اليونان، الذي تؤهله للمطالبة بالحكم الذاتي » (٨) . هذا وتحمس لمشروع مولتكه ملك بروسيا،فريدريش فيلهلم الرابع (Friedrich Wilhelm IV) وتبنّاه، فعرضه على ملوك أوروبا فلم يقبلوا به (٩) .

وبقيت فكرة استعمار فلسطين تشغل بال العديد من رجال الدين والسياسة والاقتصاد في أوروبا ؛ غير اننا سنقتصر على هذه المشروعات التي كانت تمهيدا للمشروع الاستعماري الالماني، الذي بدأ تنفيذه في نهاية الستينات من القرن التاسع عشر .

جمعية الهيكل الالمانية واستعمار فلسطين

تعود جمعية الهيكل الالمانية(Deutsche Tempelgesellschaft) في اصولها الى حركة الاتقياء Pietismus التي ظهرت في المانيا في القرن السابع عشر ، كحركة دينية اصلاحية في الكنيسة الانجيلية،اكدت على دراسة الكتاب المقدس،وعلى الخبرة الدينية الشخصية . واستمرت هذه الحركة الدينية حتى مطلع القرن التاسع عشر،وتركزت حول تيوزوفن بينجل Theosophen Bengel ، الذي بشّر بقيام مملكة الرب وعودة المسيح الى الارض في اعقاب كوارث مريعة تنجم عن الابتعاد عن الروح المسيحية . ودعا بينجل كلّ تقي أن يبحث له عن مكان في الشرق،لقرب قيام مملكة الرب هناك . ورأى بينجل واتباعه في نابليون بونابرت الشيطان المناهض للمسيح . ومع نهاية نابليون،اعتقد بينجل ان لا بد من مرور بعض الوقت حتى تتم التغيرات الكبرى . وتوقع أن تتم عودة المسيح عام ١٨٣٦ .

وفي عام١٨١٧حلّت مجاعة بمملكة فورتمبرغ Wurttemberg، فانتهز بينجل هذه الحالة،ودعا اتباعه الى الهجرة الى الشرق . فهاجر آلاف الفلاحين من هذه المملكة الى جنوب روسيا،حيث رحب بهم القيصر اسكندر الاول . واعتقد كثيرون منهم أن ترحيب القيصر الروسي نداء الهي لا بد من تلبيته . وتمت هجرة هؤلاء الالمان تحت اشراف البارون فون بيركهايم Von Berkheim . وسمح لهم القيصر بادارة شؤونهم ادارة ذاتية .

أما مملكة فورتمبرغ فقد رأت في هجرة مواطنيها خطرا يتهددها،لذلك لجأت الى مختلف الوسائل للحيلولة دون هجرتهم . وتقدم النائب العام في المملكة باقتراح على حكومته ينص على السماح لهؤلاء المتدينين بتشكيل جمعيات خاصة بهم،تتمتع بشيء من الاستقلال الذاتي . قبلت حكومة فورتمبرغ هذا الاقتراح،وتشكلت أول جمعية دينية في فورتمبرغ على يد

غوتليب هوفمان G. M. Hoffmann، رئيس بلدية ليونبرغ Leonberg في تشرين الأول عام ١٨١٨ . وفي صيف عام ١٨١٩ بدأ أعضاء الجمعية الجديدة بالاستيطان في قرية من أملاك الفارس كورنتال Kornthal ، قرب مدينة شتوتجارت Stuttgart ، وبنوا منازل لهم عليها مع دار للاجتماعات العامة (١٠) .

في كورنتال ترعرع ابنا غوتليب هوفمان : فيلهلم (الأكبر) وكريستوف، وتربيا تربية دينية ؛ فحصل الأول على منصب ديني رفيع في بلاط ملك بروسيا، وهو منصب قسيس البلاط Hof prediger ، بينما ورث الثاني، الذي يصغره بتسع سنوات ، أباه في رئاسة الجمعية الدينية (١١). درس كريستوف الفلسفة والتاريخ في جامعة توبنجن Tuebingen . واشتغل في التعليم . ولما اشتد ساعد الحركة العلمانية المناهضة للمسيحية في المانيا في الاربعينات من القرن التاسع عشر ، برزت هذه الجمعية الدينية للدفاع عن المسيحية، معتبرة المبادىء المسيحية الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها الاصلاح الاجتماعي في المانيا . وتولى كريستوف مهمة الدفاع عن هذا الاتجاه الديني . وأصدر في أيار عام ١٨٤٥ ، بالتعاون مع صديقه عمانويل باولس Immanuel Paulus ، الصحيفة الاسبوعية Die Sueddeutsche Warte للتعبير عن هذا الاتجاه المسيحي الاصلاحي (١٢) .

وجاءت أحداث عام ١٨٤٨ الثورية في المانيا فأدخلت الرعب في قلب كريستوف هوفمان . وتأكد له من أحداث ذلك العام الرهيبة أن « مسيحية الكنيسة مقتصرة على الوعظ الديني المجرد من الحياة ، ، وأنها قائمة على قوة العادة ، وعاجزة عن وقف التفكك والانحلال » . ووجد أن « المسيحية قد تخلت عن مهمتها الأساسية الروحية، وغاصت في أوحال

المادية،وتمسكت بالقشور الخارجية » . ورشح نفسه في ذلك العام عن مدينة لودفيجزبورغ Ludwigsburg في الانتخابات العامةللبرلمان الاتحادي الالماني « البندستاغ Bundestag »،الذي كان مقرّه مدينة فرانكفورت على الماين . وكان على مملكة فورتمبرغ أن تقدم ٢٨ نائبا عنها الى ذلك البرلمان . فاز هوفمان على خصمه مرشح الأوساط الليبرالية العلمانية ، فكان النائب الوحيد في البرلمان الاتحادي الالماني الذي يمثل حركة الأتقياء الالمان (١٣) .

وجد هوفمان في الاتجاهات الليبرالية والثورية،التي لقيت من يعبرعنها ويمثلها في برلمان فرانكفورت ، دليلا على فشل الكنيسة الانجيلية في القيام برسالتها . فعاد الى منطقته وبدأ الدعوة الى انشاء كنيسة حرة من الأوساط المتديّنة الورعة،وتأسيس جمعية انجيلية Evangaelische Verein مستقلة عن الكنيسة الانجيلية الرسمية،وكان ساعده الأيمن في دعوته هذه جورج دافيد هارديج Georg David Hardegg ، الذي تعرّف عليه عام ١٨٤٨ (١٤) ، وصديقه عمانويل باولوس .

واتخذت هذه الحركة الدينية اتجاها جديدا عام ١٨٥٣، مع اندلاع حرب القرم بين الدولة العثمانية وروسيا ، اذ سرى اعتقاد لدى الأوروبيين ان الدولة العثمانية على شفا الانهيار ، وأنّ تفكّكها بات وشيكا . وجاءت الاضطرابات الدينية التي حدثت في القدس وغيرها من المدن الفلسطينية ، لتشد أنظار المتدينين الالمان الى الأرض المقدسة . وبرز كريستوف هوفمان يدعو الى سلخ فلسطين عن الدولة العثمانية،وجعلها موطنا لشعب الله Das Volk Gottes ، تنفيذا لوعود الأنبياء الواردة في التوراة . وشعب الله هذا ليس الشعب اليهودي ، الذي لم يعد له وجود ، وانما هو الشعب المسيحي الانجيلي .

وفي ٢٤ آب عام ١٨٥٤ دعت لجنة أصدقاء القدس، التي تشكلت من أتباع هوفمان ، الى اجتماع عام يعقد في فالدهورن Waldhorn، قرب لودفيجزبورغ، من أجل بحث الوسائل اللازمة لتحقيق مشروع هوفمان . واقترح هارديج في هذا الاجتماع التوجه الى البندستاغ، في فرانكفورت، والطلب منه أن يسعى لدى السلطان العثماني للسماح للألمان باستعمار فلسطين ، من أجل ايجاد عمل للعاطلين عن العمل في ألمانيا . وكان الشعار الذي طرحه هارديج في هذا الاجتماع « ينبغي ايجاد عمل للشعب الالماني » "die deutsche Nation muss Arbeit Haben." . ونفذ اقتراح هارديج، ووُقّع العريضة ٤٣٩ شخصا ، وحملها هوفمان وهارديج وقدماها الى البارون فون بروكش Von Brokesch، رئيس البندستاغ . غير أننا لا نعلم شيئا عن استجابة البندستاغ لهذه العريضة أو رفضها (١٥) .

وتولّت مجلة Sueddeutsche Warte، الناطقة باسم الجماعة الدعوة الى المشروع الجديد . واخذت في الوقت نفسه تشنّ هجوما على كنيسة فورتمبرغ الانجيلية الرسمية . وفي هذه الأثناء كتب فيلهلم هوفمان، من برلين، الى شقيقه ينصحه بالبقاء في حوزة الكنيسة الانجيلية، والابتعاد عن مغامرات هارديج . غير أن كريستوف لم يُعِرْ بالا لهذه النصيحة ، وكتب مشروع دستور للجمعية الجديدة سماه « مشروع دستور شعب الله Verfassungsentwurf des Volkes Gottes" . فتشكلت الجمعية في عام ١٨٥٤ تحت اسم "جمعية تجميع شعب الله في القدس Gesellschaft fuer Sammlung des Volkes Gottes in Jerusalem"، وجعلت هدفها السعي لجمع شعب الله في القدس لبناء مملكة الرب . ورأى قادة الجمعية أنهم بحاجة الى مزيد من الاعداد على أرض الوطن، لجمع أكبر عدد ممكن من الالمان وغيرهم قبل الهجرة الى فلسطين . وقام هوفمان وهارديج برحلات عديدة في أوروبا ، وحضرا في خريف عام ١٨٥٤ مؤتمرا

دينيا في باريس، وعرضا عليه مشروعهما، فلقي اهتماما من المؤتمرين .

وتبرعت بعض الأسر الثرية بالأموال لشراء الاراضي الواجب تجميع شعب الله عليها في المانيا قبل الانطلاق الى استعمار فلسطين . فتم شراء قطعة واسعة من الأرض في كيرشنهاردتهوف (Kirchenhardthof)، قرب فينندن Winnenden تحت منبع نهر النيكر Necker ، عام ١٨٥٦ . وتمكن هوفمان وهارديج من جمع عدد كبير من الأنصار، أُطلق عليهم اسم « أصدقاء القدس Jerusalem Freunde »، بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف شخص . وساهمت سنوات الجدب التي شهدتها مملكة فورتمبرغ ، خلال السنوات الاولى من تشكيل هذه الجمعية ، في كسب العديد من الأنصار الراغبين في الهجرة الى فلسطين (١٦) .

وانتهت حرب القرم عام ١٨٥٦ دون أن تسفر عن انهيار الدولة العثمانية، كما كان يتوقع هوفمان وانصاره . وشنّت الكنيسة الانجيلية الوطنية في فورتمبرغ ، بتشجيع ودعم من حكومتها ، حملة شديدة على أصدقاء القدس . فأخذت أعدادهم تقلّ تدريجيا (١٧) .

وفي صيف عام ١٨٥٨ قررت الجمعية ارسال وفد مؤلف من هوفمان وهارديج والمزارع بوبيك Bubeck الى فلسطين ، ايمانا منها بأن المسألة الشرقية لم تُحلّ بمؤتمر باريس عام ١٨٥٦ ، وأن لا بد من دراسة امكانية استعمار فلسطين . وصل الوفد الى فلسطين، والتقى بمطران القدس الانجليكاني صموئيل غوبات Samuel Gobat ، وبالمبشر الانجيلي شنلّر Schneller ، فشرحا للوفد أوضاع فلسطين، ولم يشجّعاه على تنفيذ مشروعه . وجمع الوفد معلومات جيدة عن البلاد من القنصلية البروسية في القدس . ولما عاد الوفد الى المانيا نشر هوفمان تقريرا عن الزيارة في مجلة Sueddeutsche Warte ، بيّن فيه المصاعب التي تعترض

الاستيطان في فلسطين ، واوضح أن لا بد من الاستعداد لذلك . ودامت فترة الاستعداد هذه عشر سنوات (١٨) .

دخل هوفمان وانصاره في أثناء ذلك في خلاف مع كنيسة فورتمبرغ الانجيلية،ادى الى طردهم منها في ٧ تشرين الأول عام ١٨٥٩ . واضطروا الى انشاء طائفة دينية خاصة بهم . فقدّم هوفمان اقتراحا الى مجلس الجمعية بتسمية الطائفة « الهيكل الروحي Der geistliche Tempel » او « طريق الخلاص Der Weg Zur Rettung » . أما فكرة « الهيكل » وتسمية الجمعية به،فتعود الى القس المعمداني جاكوب أمان Jakob Amman ، الذي انشأ في برن Bern ، بسويسرا،جمعية بهذا الاسم عام ١٦٩٣،بهدف اعادة بناء هيكل الرب في القدس (١٩) . ولا صلة لهذه التسمية بجمعية « فرسان الهيكل » التي تشكلت في مطلع القرن الثاني عشر،واستمرت في نشاطها حتى نهاية احتلال الفرنجة لبلاد الشام في نهاية القرن الثالث عشر .

واشتدت حملة الكنيسة الانجيلية على الطائفة الجديدة،فتفرق العديد من أفرادها ؛ غير أنها استطاعت أن تحافظ على بقاء بعضهم في حظيرتها،وأن تكسب الى صفوفها العديد من الاتباع خارج المانيا،وبخاصة في أوساط المهاجرين الالمان في أمريكا الشمالية وجنوب روسيا.

واعيد تنظيم الجماعة في كيرشنهاردتهوف عام ١٨٦١ تحت اسم جماعة الهيكل الالمانية Deutscher Tempel ، من أجل تجديد حياة « شعب الله» الدينية والاجتماعية . وحتى تكسب الجمعية ولاء العناصر القومية الالمانية، رفعت شعارات قومية المانية . وجاء في أحد بياناتها : « ان روح الشعب الالماني ومزاياه ينبغي أن تكون الطابع المميز لهيكل القدس واستعمار فلسطين ... ولا بد من السعي لدى سلطة المانية (او دولة المانية) لمتابعة

تحقيق هذا الهدف ». (٢٠)

واستمر قادة الجمعية يحضرون المؤتمرات الدينية التي كانت تعقد في برلين ولندن وبيرن وجنيف ، ويتجولون في العواصم والمدن الاوروبية الكبرى يدعون الى تحقيق مشروعهم . فقد شارك هارديج في المؤتمر الذي عقد في جنيف عام ١٨٦٧، والذي كان ضيف الشرف فيه غاريبالدي Garibaldi ، بطل الحرية في ايطاليا . كما حضر حفل انشاء الصليب الأحمر على يد السويسري هنري دينان Henri Dunant ، الذي ابدى اهتمامه بشؤون الشرق العربي في فترة مبكرة . فقد أصدر كتابا في باريس بعنوان « تجديد الشرق La Rénovation de l'Orient » عام ١٨٦٥ . وقام دينان أثناء اقامته في باريس بانشاء جمعية العمل الدولي من أجل تجديد فلسطين Oeuvre Internationale de la Rénovation de la Palestine ، وتولى منصب سكرتيرها العام ، وتولى انشاء فروع لها في باريس . واقام هارديج صلات وثيقة مع دينان . وتولى الأخير توجيه نداءات الى فروع « الجمعية الدولية لتجديد فلسطين »، من أجل هيمنة المسيحيين على فلسطين عن طريق الاستيطان السلمي .

وسعى دينان لدى السفير العثماني في باريس جمال باشا، ولدى الوزير المفوض الفرنسي في اسطنبول المسيو بوريه Bourrée ، من أجل حث الباب العالي على السماح للمستعمرين الالمان، من جمعية الهيكل، بشراء الأرض في فلسطين والاستقرار فيها . وتحت ضغط دينان جاء الجواب من الباب العالي يطلب تحديد موقع الأرض التي يريد المستعمرون الالمان شراءها . فاتصل دينان بهارديج، واقترح عليه ارسال مهندس مختص الى فلسطين من اجل اختيار الموقع المطلوب وتحديد مساحته . وكتب رسالة الى هارديج مؤرخة في ٢٤ كانون الثاني عام ١٨٦٨ يقول فيها : « من

المعروف جيدا ان ارسال مهندس من أوروبا أمر مكلف (١٠٠٠٠ــ١٥٠٠٠ فرنك) ، وهذا مبلغ أولى بجمعيتكم أن توفره لها . ولذلك قمنا بالاتصال بعدد من الأشخاص،وبخاصة بالوزير المفوض بوريه،ليسأل اذا كان بالامكان ايجاد مهندس قدير وأمين،وبأجر قليل،في اسطنبول أو في أي مكان آخر في الشرق . واتصلنا بدورنا بمحل لوفنتال Loewenthal في يافا لهذا الغرض . ولكننا لم نستطع ان نحصل على المهندس المطلوب . وربما كان من الأفضل لو أن جمعيتكم اختارت مهندسا من بين أعضائها،وكلفته بالسفر الى فلسطين ... » . وفشل دينان وهارديج في العثور على المهندس المطلوب . واخيرا قررت الهيئة الادارية لجمعية الهيكل،في اجتماع عقدته في ٢٤ آذار ١٨٦٨ في كيرشنهارتهوف،ان يقوم هوفمان وهارديج بالسفر الى فلسطين في آب من العام نفسه،من أجل انشاء أول مركز، Tempel Post ، للجمعية على أرض فلسطين . وقد سرّ دينان بهذا القرار،وكتب الى هارديج في ٨ نيسان ١٨٦٨ يقول : « آمل أن نتمكن من احراز بعض التقدم في عملنا في هذا الصيف . وكلما طال الزمن زاد اقتناعي بذلك . يمكنك الاعتماد علي ، انني مؤمن بمستقبل فلسطين ... وسيكون لجمعيتكم الشرف الكبير في انشاء اول مستعمرة على الارض المقدسة ... » (٢١)

وفي ٦ آب ١٨٦٨ سافر زعيما جمعية الهيكل،هوفمان وهارديج،من كيرشنهاردتهوف مع أسرتيهما الى فلسطين . ومرّا بفيينّا حيث قابلا البارون فون أورزي Von Orsi، من وزارة الخارجية النمسوية،فوعدهما بأن يقدم ممثلو الحكومة النمسوية الدبلوماسيون النصائح والمساعدات الضرورية لهما . كما مرا ببودابست،وقابلا فرانز دياك Franz Deák ، صاحب فكرة الاتحاد النمسوي ــ الهنغاري . واخيرا وصلا الى اسطنبول، حيث رحّب بهما الوزير المفوض لرابطة دول شمال المانيا

der Norddeutsche Bund" الذي كان قد تلقّى تعليمات من البلاط الملكي البروسي بتقديم التسهيلات اللازمة لهما ، نتيجة وساطة شقيق هوفمان، القس في البلاط البروسي . وفي ١٥ أيلول ١٨٦٨ تقدّم هوفمان وهارديج بطلب الى الباب العالي للموافقة على شراء قطعة من الارض مساحتهـــا ثلاثة اميال مربعة على جبل الكرمل في حيفا . وجاء اختيار موقع القطعـــة بتوصية من المفوضية الالمانية . وأوضحا في طلبهما هذا ان الغرض من الاستقرار في فلسطين ديني محض،وليس له أية أبعاد سياسيـــة ، وأن الاستيطان هناك سيقتصر على اعضاء جمعية الهيكل،وسوف يتم بصـــورة تدريجية . كما ابانا ايضا دور الجمعية المقبل في تطوير الزراعة والصناعة في البلاد ، ولذلك طالبا باعفاء المستوطنين الالمان من الضرائب لمدة تتراوح بين خمس وسبع سنوات،حتى يتمكنوا من تدبير امورهم . وأبديا رغبـــة المستوطنين في ادارة شؤونهم بأنفسهم،دون اي تدخل من السلطة الحاكمة.

واتصل هارديج بالوزراء المفوضين لدول النمسا وفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة وروسيا وهولندا والسويد،وقال لهم : « ان ظـــروف شعبنا اقنعتنا بأن الوقت قد حان لبناء هيكل الرب في الارض المقدسة ؛ فاقوال الأنبياء في العهدين القديم والجديد تعتبر بناء الهيكل الوسيلة الوحيدة لسعادة الشعوب والأفراد على حد سواء » . ورغم النشاط الحثيث الذي بذله زعيما جمعية الهيكل طوال مدة اقامتهما في اسطنبول (٤٥ يوما) ، لم يحصلا على الفرمان المطلوب . فغادرا العاصمة العثمانية في ٨ تشرين الأول ١٨٦٨ باتجاه بيروت،فوصلا اليها بعد أربعة عشر يوما . وقابـــلا هناك القنصل البروسي العام الدكتور فيبر Dr. Weber ، فقدم اليهما عددا من النصائح،ومنها أن لا يتنازلا عن الجنسية الالمانية،وأن يرفضـــا الجنسية العثمانية ، لكي يتمتعا بحماية القناصل الالمان . ومن بيروت سافرا الى حيفا فبلغاها في ٣٠ تشرين الأول عام ١٨٦٨ (٢٢) .

كان من الأسباب التي دفعت زعيمي جمعية الهيكل الى البـــــــدء بمشروعهما الاستيطاني في فلسطين ، صدور القانون العثماني للسادس عشر من حزيران عام ١٨٦٧، الذي أباح للرعايا الأجانب حق التملك في المدن والريف في كافة الولايات العثمانية . وأصبح هذا القانون نافذ المفعول في حزيران ١٨٦٨ . لذلك اعتقد زعيما جمعية الهيكل أن الطريق أمامهما قد فتح لشراء الأرض في فلسطين والاستقرار عليها (٢٣) .

مستعمرة الهيكليين في حيفا

عند وصول هوفمان وهارديج الى حيفا، استقبلهما نائب القنصل البروسي في المدينة، الهر تسيفوس Ziphos ، وقدم لهما كل ما يحتاجان اليه من عون ومساعدة . وفي الأيام الأولى من اقامتهما وصل رد الباب العالي على طلبهما، يؤكد استحالة السماح لهما بشراء الارض في حيفـــا الا اذا حصلا على الجنسية العثمانية . ولكن هذا الرد لم يثنهما عـــن مشروعهما؛ فاجريا اتصالات بالبلاط البروسي، الذي اصدر تعليماته الى الوزير المفوض لرابطة دول شمال المانيا في اسطنبول بضرورة التوسط لدى الباب العالي، وتذكير المسؤولين العثمانيين بأنهم سمحوا لرعايا دول أوروبية اخرى بشراء الأرض دون التجنّس بالجنسية العثمانية (٢٤) .

غير أن هوفمان وهارديج لم ينتظرا نتائج الاتصالات الدبلوماسيـــة، وبتشجيع من تسيفوس قاما بشراء قطعة من الأرض مساحتهـــا عشرة هكتارات عن طريق الاحتيال على القانون العثماني ؛ اذ تم الشراء عـــن طريق وسيط يحمل الجنسية العثمانية، وقام بدوره بتأجيرها لهما لمدة طويلة. ولما احتج القاضي على عملية البيع، سويت القضية بتدخل نائب القنصـــل البروسي (٢٥) .

وبدأ بناء أول مستعمرة المانية في فلسطين على قطعة الأرض هذه، التي

كانت تمتد من شاطىء البحر حتى سفح جبل الكرمل ، في ربيع عام ١٨٦٩ . ودُشّنت المنازل الاثنا عشر التي بنيت على هذه الارض في آذار ١٨٧٠ من قبل نائب القنصل البروسي تسيفوس ، واشتملت آنذاك على منازل للسكن، وبناء لمدرسة،وآخر للصلاة . وقد وُضع تصميم هذه المنازل والابنية مهندس دنماركي جاء من بيروت،اسمه لويفد Loyved .(٢٦)وعلى مدخل المستعمرة نقشت العبارة التالية باللغة الالمانية « لتنسني يميني ان نسيتك يا قدس Vergesse ich dein Jerusalem, So wurde meiner Rechten vergessen (1969) » ، وحرص هوفمان وجماعته على بناء المستعمرة على الطراز الالماني،وفتح الشوارع الواسعة فيها،وتزيينها بالأشجار والزهر والورود . كما اهتمت الهيأة الادارية للجمعية باختيار افضل العناصر من أعضائها للهجرة الى فلسطين،من أجل اقامة مجتمع متماسك مستقلّ عن المحيط العربي ؛ كما حرصت على اقامة صلات وثيقة بالوطن الام ، وعلى الحفاظ على مستوى حياتهم كأوروبيين في حيفا (٢٧).

ونَمَت هذه المستعمرة بقدوم مهاجرين جدد من كيرشنهاردتهوف، وبخاصة بعد ابرام اتفاقية بين مملكة بروسيا والدولة العثمانية في ٧ حزيران ١٨٦٩،نصّت على السماح للألمان بالاقامة والاستقرار في فلسطين . فبلغ عدد سكان المستعمرة في بداية عام ١٨٧٣ (٢٥٤) نسمة . وبلغ عدد بيوتها (٣١) بيتا ، استعمل عشرون بيتا الى جانبها كمعامل وورش للعمل. وفي عام ١٩٠٢ بلغ عدد سكانها ٥١٧ نسمة ، وبلغ عدد منازلها ٩٢ منزلا، والى جانبها ٩٥ ورشة عمل (٢٨) . وبلغ عدد سكانها عند اندلاع الحرب العالمية الأولى (٧٥٠) نسمة (٢٩) . ونقص عدد سكانها بسبب الاحتلال البريطاني لفلسطين ١٩١٧/١٩١٨،واعتقال العديد من الالمان،وتهجير بعضهم قسرا الى المانيا في نهاية الحرب العالمية الأولى،والسنوات الأولى التي تلت توقيع معاهدة الصلح بين المانيا والحلفاء عام ١٩١٩ (٣٠) .

اعتنى الالمان في السنوات العشر الأولى من استيطانهم في حيفابزراعة الكرمة،وبناء معامل لانتاج النبيذ . غير أن مرضا اصاب الكرمة في الثمانينات من القرن التاسع عشر، فقاموا باقتلاعها . وكذلك اصيبت أشجار الحمضيات التي زرعوها بأمراض ادت الى اقتلاعها . عند ذلك انصب اهتمامهم على زراعة الزيتون،الذي كانوا يستخرجون منه صابونا من نوع جيّد،كانوا يصدرونه لالمانيا وامريكا الشمالية .

واقاموا في المستعمرة طاحونة هوائية على الطراز الهولندي،كما انشأوا مزرعة للألبان . وانصرفوا تدريجيا عن الزراعة،واتجهوا نحو التجارة والصناعة،حتى اصبحوا محور الحياة الاقتصادية في حيفا . وكانوا روادا في الصناعات والحرف اليدوية وتجارة الاستيراد والتصدير . وادخلوا الى حيفا المكتبات الحديثة،والأمسيات الموسيقية،والنوادي المسرحية، والنشاط الرياضي ؛ فكانت مثلا يحتذى من قبل السلطات العثمانية في المدينة (٣١) .

مستعمرة يافا :

في آذار عام ١٨٦٩ وفد الى هوفمان زائر من يافا من أصدقائه الذين تعرّف بهم في بازل ، هو المبشر الانجيلي زالميلر Saalmueller، يرافقه الالماني ميسلر Messler ، الذي اشترى المستعمرة الامريكية في يافا والمعروفة باسم « قرية آدامز Adams City ، وجاء يعرضها على الهيكليين الالمان بسعرمعقول.ومن المعروف أن هذه المستعمرة المؤلفة من تسعة عشر بيتا من الخشب،قد انشأتها طائفة دينية أمريكية جاءت الى فلسطين لتشهد عودة المسيح الى الأرض،كما كانت تعتقد . ولكنها هجرت المستعمرة بعد أن تبين لاتباعها أن النبوءة بعودة المسيح لم تتحقق ، وبعد أن فتكت بهم الأمراض (٣٢) .

لقي العرض الذي تقدم به ميسلر استجابة لدى الهيكليين، فاشتروا خمسة منازل منها بمبلغ (٦٥) الف فرنك فرنسي أول الأمر، ثم ما لبثوا ان اشتروا ثلاثة ارباعها في مطلع عام ١٨٧١ ، وبعد ذلك بعامين اصبحت المستعمرة بأكملها ملكا لهم (٣٣) .

وفي أيار ١٨٦٩ انتقل هوفمان من حيفا الى المستعمرة الجديدة، واوكل ادارة مستعمرة حيفا الى رفيقه هارديج . وباشر فور وصوله ببناء مستشفى صغير ودار للضيافة Gasthaus .

وحدث أن قام ولي عهد بروسيا، الأمير فريدريش Friedrich ، بالحج الى القدس في ذلك العام ، بعد أن حضر الاحتفالات بفتح قناة السويس ؛ فنزل في يافا في ٢ تشرين الثاني عام ١٨٦٩ ، وزار المستعمرة الالمانية الجديدة . وكتب هوفمان عن هذه الزيارة في مجلة الجمعية، Sueddeutsche Warte في عددها الصادر في ١٥ تشرين الثاني ١٨٦٩، يقول : « لقد استقبلناه (ولي عهد بروسيا) على مدخل المستعمرة ، فنزل عن جواده وتحدث الى العديد منا بروح ودية ، ثم تجول في المستعمرة ، وزار منزل رئيس الجمعية . واتجه بعد ذلك الى دار الضيافة، حيث تناول مع حاشيته طعام الفطور . وودعناه بعد ذلك ، فركب جواده، يرافقه جنود البحرية (الالمان)، والباشا (العثماني)، والجند الاتراك نحو الرملة .. » . هذا وقد تبرع الامير البروسي ببعض المال للجمعية (٣٤) . وبلغت مساحة مستعمرة يافا هذه ستين هكتارا .

مستعمرة سارونا Sarona

توسع المستوطنون الهيكليون في يافا في نشاطهم ، واشتروا في عام ١٨٧١ قطعة من الارض على طريق يافا ــ تل أبيب مساحتها ٧٨ هكتارا، (بسعر الهكتار الواحد مئة غولد Guld) . وبدأ بناء المنازل على قطعة

الارض هذه في ٢٧ آب ١٨٧١،فكانت المستعمرة الالمانية الثالثة في البلاد . وتولى تصميم الابنية والتخطيط للمستعمرة المهندس الالماني ثيودور زاندل Theodor Sandel ، ابن طبيب المستعمرة الهيكلية في يافا الدكتور زاندل وقد انتقل الى المستعمرة نائب القنصل الالماني في يافا،مراد أفندي (أرمني الأصل) .

انتشرت الحمى بين سكان المستعمرة في عام ١٨٧٢ ، وفتكت بثمانية وعشرين شخصا من مجموع سكان المستعمرة،البالغ حوالي مئة نسمة(٣٥).

اشتهرت مستعمرة سارونا بزراعة الزهور والكرمة وتربية الأبقار، كما وجد فيها معمل لانتاج النبيذ .

وفيما يلي بيان بتطور هذه المستعمرة بين عامي ١٨٧٢ و ١٩٢٦ :

السنة	عدد السكان	المساحة بالهكتار	معدل المساحة للفرد الواحد بالهكتار
١٨٧٢	٦٣	٧٨	١ر٢
١٨٨٠	١٦٢	٢٢٣	١ر٤
١٨٩٨	٢٦٣	٤٦٩	١ر٧
١٩١٤	٢٠٠	٤٧٤	٢ر٤
١٩٢٦	٢٢٥	٤٩٢	٢ر٢(٣٦)

مستعمرة ريفايم Rephaim

اشترى الهر فرانك Frank ، أحد أعضاء جمعية الهيكل في مستعمرة يافا،قطعة من الارض في رفايم شمال غربي محطة سكة حديد القدس، خارج حدود البلدية ، في نيسان عام ١٨٧٢،وبنى عليها منزلا وطاحونة تعمل

بالماء . واخذ أعضاء الجمعية يتوافدون اليه ويشترون الأرض المجاورة . واعتنى سكان المستعمرة الجديدة باصلاح العربات التي تجرها الخيول . فمنذ عام ١٨٦٧ فتحت طريق للعربات بين يافا والقدس ، وكانت بذلك أول طريق للعربات في فلسطين . واهتم الالمان بالنقل بين يافا والقدس، وأصبح منتظما بعد بضع سنوات من انشاء المستعمرة الجديدة (٣٧) .

اصبحت مستعمرة ريفايم منذ عام ١٨٧٨ المقر العام لادارة جمعية الهيكل ؛ وبلغت مساحتها ٢٥ هكتارا . وكان معظم سكانها يشتغلون بالحرف اليدوية والتجارة والصناعة ، واشتملت على مدرسة ثانوية كاملة وروضة للأطفال (٣٨) .

مستعمرة فالهالا Walhala

انشأها المستعمرون الالمان في يافا عام ١٨٩٢ على طريق يافا ـ تل أبيب . واقيم في هذه المستعمرة مستشفى لمعالجة الالمان المقيمين في المستعمرات الالمانية في جنوب فلسطين (يافا ، سارونا ، فيلهلما) . وكان سكانها يمارسون التجارة والصناعة والحرف اليدوية ، ويعملون في وكالات التأمين والنقل البحري . وانشىء في المستعمرة معمل للاسمنت . وبنت (فندق القدس) في يافا الذي كان من أجمل فنادق المدينة (٣٩) .

مستعمرة فيلهلما Wilhelma

انشئت على يد المستوطنين الالمان في مستعمرتي يافا وسارونا عام ١٩٠٢ ، على بعد خمسة أميال الى الشمال الشرقي من اللد، في وسط سهل خصيب ، بالقرب من سكة حديد اللد ـ حيفا . بلغ عدد سكان المستعمرة في العام الاول من انشائها ٩٤ نسمة . وفيما يلي بيان بتطور هذه

المستعمرة بين عامي ١٩٠٣ و ١٩٢٦ :

السنة	عدد السكان	المساحة بالهكتار	معدل المساحة للفرد الواحد بالهكتار
١٩٠٣	٩٤	٨٢٤	٨ر٨
١٩١٤	١٩٥	٩١٩	٤ر٦
١٩٢٦	٢١٥	٩٥٩	٤ر٥(٤٠)

مستعمرة نويهاردهوف Neuhardhof

انشاها المستعمرون الالمان في حيفا من أجل الحصول على مزيد من الأرض، خارج نطاق المستعمرة الهيكلية الأولى في البلاد . وتقع المستعمرة الجديدة على بعد اربعة أميال الى الجنوب من جبل الكرمل . وبلغت مساحتها اربعمئة هكتار . وقد استُغلّت ارض المستعمرة لزراعة الخضروات والحبوب (٤١) .

مستعمرة بيت لحم في الجليل Bethlehem

انشاها المستوطنون الالمان في حيفا عام ١٩٠٦، بأموال من « جمعية شتوتجارت لتطوير الاستعمار الالماني في فلسطين »، على أرض قرية بيت لحم الواقعة على سفوح جبال الجليل، والتي تبعد بضعة أميال عن مدينة الناصرة . لها مساحتها ألف وسبعمائة هكتار ، زُرع ثلثها باشجار البلوط، والباقي باشجار الكرمة والفواكه والحبوب . وفيما يلي بيان بنمو هذه

المستعمرة بين عامي ١٩٠٧ و ١٩٢٦ :

السنة	عدد السكان	المساحة بالهكتار	معدل المساحة للفرد الواحد بالهكتار
١٩٠٧	١٠	٧١٨	٥٤ر٨
١٩١٤	٤١	٧١٨	١٣ر٣
١٩٢٦	٩٨	٧١٨	٤ر٥ (٤١)

مستعمرة فالدهايم Waldheim

انشئت هذه المستعمرة عام ١٩٠٧ بالقرب من بير سالم على يد المسؤولين عن دار الأيتام السورية Das Syrische Waisenhous ، لتكون مركزا لتدريب خريجيها واستغلالها لتمويل دار الأيتام . ولذلك لا صلة لها بمستعمرات جمعية الهيكل .

مستعمرة شمه Chemeh

كانت تتبع بدورها دار الايتام السورية في القدس، ولم تختلف عن مستعمرة فالدهايم من حيث الأغراض التي انشئت من أجلها (٤٢) .

اشتملت كل مستعمرة من مستعمرات الهيكليين على قاعة للاجتماعات العامة، واخرى للعبادة، ومدرسة، وروضة اطفال او أكثر، وجمعيات للموسيقى، وناد رياضي، ومستوصف صغير أحيانا . .

المصاعب الداخلية التي واجهها المستعمرون الالمان :

في السنوات الأولى للاستيطان واجه المستعمرون الهيكليون صعوبات

ومتاعب عديدة بعضها أمني وبعضها الآخر اقتصادي واجتماعي . لذلك اهملوا الامور الروحية،وفشلوا في كسب انصار حدد لحركتهم في فلسطين وفي المانيا . وبلغ مجموع من استقر منهم في فلسطين بين عامي ١٨٦٨ و ١٨٧٥ نحو سبعمئة وخمسين عضوا ، اي نجو ربع عدد أعضاء الجمعية. وبعد عام ١٨٧٥ اخذت جمعية الهيكل في الاضمحلال التدريجي في المانيا نفسها،وتوقفت منذ ذلك العام هجرتهم من المانيا ، ومات معظم الجيل الأول من هؤلاء المستعمرين في أواخر السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر .

ادرك الجيل الجديد تعذر تحقيق الغاية من هجرتهم الى فلسطين، وهي جمع « شعب الله » في القدس واقامة مملكة المسيح . وتركّز اهتمامهم على تحسين احوالهم،وتقديم نمط معين من المعيشة للسكان المحليين . وساهم هذا التغيّر في اهداف الجمعية في جعل الحياة أسهل .

كانت اول الصعوبات التي واجهها المستعمرون الهيكليون في فلسطين النزاع بين زعيمي الجمعية،كريستوف هوفمان وجورج هارديج ؛ كان هوفمان المؤسس الروحي للجمعية ، وكان هارديج المنفذ لفكرة المستعمرات. اما أسباب الخلاف بينهما فشخصية،تدور حول كيفية تطوير الاستيطان الالماني ، وحول بعض الآراء الدينية .

فقد تولى كل منهما ادارة مستعمرة مستقلة عن الاخرى. وكانت مستعمرة حيفا من نصيب هارديج بينما كانت مستعمرة يافا من نصيب هوفمان . وكان هارديج قد اسرع الى شراء اراضٍ تابعة لمستعمرته دون التنسيق مع هوفمان . وعارض هارديج بشدة نقل المعهد الثانوي الى ريفايم، قرب القدس . وحصل خلاف بين هارديج والهيأة الادارية لجمعية الهيكل في شتوتجارت،حول أموال صندوق الاستعمار التابع للجمعية،

Kolinisations Kasse . ورفض هارديج أن يجيب عن كيفية صرفه لهذه الأموال، فاتهمته الهيأة الادارية بالتبذير . وكان لسلوكه المتصلب اثر في ابتعاد الهيكليين في فلسطين عنه ؛ فقد كان منفّرا في تصرفاته . ولما أجريت الانتخابات لاختيار القيادة الجديدة للجمعية، عام ١٨٧٤، لم ينجح هارديج . فما كان منه الا أن أعلن انسحابه من الجمعية . وصدرت مجلة الجمعية " Suddeutsche Warte " في ١٧ تموز ١٨٧٤ بآخر مقال له بعنوان « وداعي لجمعية الهيكل Mein Abschied » . " von der Gesellschoft des Tempels ، أكد فيه التزامه بمبادىء الجمعية رغم انفصاله عنها . وخرج مع هارديج عدد من أصدقائه، فشكلوا « رابطة الهيكل، Der Tempelverein » . ومنذئذ تولى القيادة العليا للجمعية كريستوف هوفمان، الذي أصبح يتمتع بسلطات واسعة . فأعاد تنظيمها بحيث أصبح لها مجلس استشاري، Tempelrat، مؤلف من مئة عضو . ووثّقت الجمعية صلاتها بفروعها في المانيا وأمريكا الشمالية وجنوب روسيا، بأن أصبح لهذه الفروع ممثلون في مجلس الجمعية الاستشاري . وفي مطلع أيلول من عام ١٨٧٤ دعي ممثلون عن فروع الجمعية للمشاركة في عيدها الذي أقيم في حيفا . وبناء على قرار مجلس الجمعية أُعتُبر يو م التاسع من أيلول عيدا لها . وتم الاحتفال بهذا العيد الأول بحضور المندوبين المذكورين . ومنذئذ تكررت اللقاءات في هذا العيد الذي كان القصد من استحداثه الحفاظ على الولاء للجمعية (٤٣) .

وحدث انقسام جديد في صفوف جمعية الهيكل، سببه الخلاف بين هوفمان ودافيد شتراوس، David Strauss ، خليفة هارديج في ادارة مستعمرة حيفا ، حول أسرار الكنيسة المقدسة، وتعاليم الثالوث الأقدس، والوهية المسيح، وموت المسيح الابن . وكان تأثير هوفمان العقلاني على جماعته قويا جدا ، لذلك بقيت أكثرية أعضاء الجمعية تدين له بالولاء .

وانفصل عدد ضئيل من الأعضاء واخذ يتقرب من الكنيسة الانجيلية .

واستغلت الكنيسة الانجيلية الانقسامات في صفوف جمعية الهيكل، فأوفدت القس راينكه، Reinecke ، من القدس منذ عام ١٨٧٩ الى مستعمرات الهيكليين . وقام خليفته القس شلخت ، Schlicht ، بالمهمة نفسها . وفي عام ١٨٩١ قررت « جمعية بيت المقدس، Jerusalem Verein » (٤٤) الانجيلية ارسال معلم الى مستعمرة حيفا ليقوم بتدريس أبناء الطائفة هناك، المنشقين عن هوفمان . وبعد ذلك بعام واحد بنيت مدرسة لهذه الغاية . وعندها قررت جمعية بيت المقدس ارسال القس ديكرت، Deckert ، الى حيفا . وبذلك اصبح للطائفة الانجيلية في حيفا مدرستها وكنيستها . وبلغ عدد الأسر التي عادت الى حظيرة الكنيسة الانجيلية من مستعمرة حيفا الهيكلية عشرين أسرة (٤٥) .

وكان للحرب العالمية الاولى آثار سلبية على المستعمرات الالمانية ، اذ منيت بخسائر فادحة على الصعيد الاقتصادي . ومع ذلك بلغ عدد المستوطنين الالمان في عام ١٩١٨ نحو الفي نسمة (٤٦) .

الحركة الثقافية في المستعمرات الهيكلية الالمانية في فلسطين :

سعى كريستوف هوفمان ، الزعيم الروحي لجمعية الهيكل، منذ وصوله الى فلسطين الى انشاء مؤسسة تعليمية تهيء التلاميذ من أبناء أعضاء الجمعية الى الالتحاق بالتعليم الجامعي في المانيا . كتب هوفمان الى رفيقه باولوس في ٢٨ أيار ١٨٧٠ يقول : « ان المدارس تشغل بالي ليل نهار » . وكان هم هوفمان تنشئة أجيال جديدة مؤمنة بالرسالة التي كرس نفسه لها . ولم تكن المدارس التي انشأتها الجمعية في مستعمراتها السابقة الذكر مجرد مدارس دينية، وانما كانت تدرّس الرياضيات والعلوم الطبيعية والعلوم الفنية والتاريخ والجغرافيا واللغات الحديثة (الالمانية والفرنسية

والعربية) . وكان التعليم الديني أساسيا في هذه المدارس .

ولعل ابرز انتاج ثقافي للهيكليين في فلسطين هي مؤلفات زعيميهم كريستوف هوفمان وجورج هارديج ؛ فقد تولى الأول رئاسة تحرير مجلة الجمعية« Sueddeutsche Warte » التي كانت تصدر في شتوتجارت مدة طويلة من الزمن،واصدر في عام ١٨٧٥ ، كتابا مهما هو « الغرب والشرق : تاريخ ثقافي من وجهة نظر جماعة الهيكل في فلسطين : Okzident und Orient : Eine Kulturgeschichte Betrachtung Vom Standpunkt der Tempelgemeinden in Palaestina, Stuttgart, Druck und Verlag J.F. Steinkopf, 1875.

ويتضمن هذا الكتاب المبادىء الأساسية لعقيدة الهيكليين بعد الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) .وفيه ايضاحات جيدة لأفكار هوفمان وتطلعاته . ويتضمن الفصل الأول منه عرضا لتطور جمعية الهيكل وفكرتها الاستعمارية ، ومدى صلتها بحركة الأنقياء القديمة ، وموقفها من المسائل الكنسية والعلمية والاجتماعية . ويؤكد هوفمان في هذا الفصل ان الهدف الأول للجمعية السعي الى استعادة ما فقدته الكنيسة من هيمنة روحية على رعاياها،وثقة المثقفين والمؤمنين بها ، وتحقيق تعاليم الكتاب المقدس .

أما الفصل الثاني من الكتاب فيدور حول الشرق وحاجاته ، مؤكدا على أن على مستقبل الشرق يقوم التجديد الديني للانسانية . ويبين أن الواجب الديني ينبغي أن يحرّك المسيحيين المؤمنين الى الهجرة الى فلسطين،التي لا يمكن مقارنتها بالهجرة الى امريكا واستراليا من وجهة نظر اقتصادية ، لأن فلسطين بلد فقير جدا،لا تتوفر فيه المصادر الطبيعية الكافية .

ويتضمن الفصل الثالث من الكتاب موضوع « الغرب ومستقبله »، يتناول فيه هوفمان الوضع الدولي ، بصفته سياسيا ، منطلقا من المسألة الدينية التي هي محور تفكيره . يقول في هذا الصدد ان الحزب الوطني الحر، Der Nationalliberden Partei ، في المملكة الالمانية (١٨٧٥) قد اهمل النور القيادي للدين،« لان مجرى تاريخ العالم تحركه افكار روحية عميقة » .

ويكرس الفصل الاخير منه للمسألة الشرقية ، ويرى استحالة حل هذه المسالة بفن الدبلوماسية،او باللجوء الى القوة . اما الحل الذي يقترحه فحملة صليبية سلمية تضمن الاستعمار المسيحي للشرق ، وتقديم صورة حية حقيقية للشرقيين عن التدين والاخلاق المقرونين بالعمل ، وبخاصة بعد ان اتضح ان التبشير المسيحي بين المسلمين لم ينل احترامهم واهتمامهم .

اما الكتاب الثاني لهوفمان فيتضمن ثلاث رسائل مفتوحة، Sendschreiben، نشرها خلال ١٨٧٧/١٨٧٨ .وقد اصدرتها مجلة الجمعية في كتاب واحد في شتوتجارت عام ١٨٧٨ بعنوان : « رسائل مفتوحة عن الهيكل ، والاسرار المقدسة ، وعقيدة الثالوث ، والوهية المسيح ، وابوّة الله للبشر .

Sendschreiben Ueber den Tempel und die Sakramente, das Dogma Ueber die Dreieinigkeit und von der Gottheit Christi, Sowie Ueber die Versoehnung der Menschen mit Gott, Stuttgart, Warte des Tempels, 1878."

تناول هوفمان في هذه الرسائل عقائد الكنيسة بشأن الثالوث الاقدس، وما قبل وجود المسيح،وموت المسيح وعودته . وقد احدثت الآراء التي نشرها انقساما في صفوف جماعته . وانشأت مجموعة منها في يافا جمعية اطلقت عليها اسم « مؤسسة الهيكل » Tempelstift تولت ادارة

المدرسة والمستشفى في مستعمرة يافا .

ونشر هوفمان مقالات عديدة ونشرات كثيرة حول الدراسات التوراتية، والدروس الدينية للشباب . وتمكن من انجاز كتابة مذكراته التي نشرت بعنوان « طريقي الى القدس » Mein Weg nach Jerusalem » . ونشر الجزء الأول منها في القدس عام ١٨٨١ بعنوان « ذكريات من شبابي» Erinnerungen aus meiner Jugend »، ونشر الجزء الثاني منها في القدس أيضا عام ١٨٨٤ بعنوان « ذكريات سن الرشد» Erinnerungen des Mannesalters » .

ومن الجدير بالذكر ان هوفمان أصدر كتابا آخر في بداية اقامته في فلسطين بعنوان « أشعار وأغان » Gedicnte und Lieder »، صدر في شتوتجارت عام ١٨٦٩ .

اضطر هوفمان بسبب المرض الى العودة الى المانيا عام ١٨٨١، فتخلى عن رئاسة جمعية الهيكل، وتوفي في ٨ كانون الأول ١٨٨٥ (٤٧) .

أما جورج دافيد هارديج، رفيق هوفمان والزعيم الثاني لجمعية الهيكل، فقد شارك في تحرير مجلة الجمعية « Sueddeutsche Warte » منذ أن تعرّف بهوفمان عام ١٨٤٨ . وأصدر كتابين قبل الهجرة الى فلسطين، هما: « الانجيل السرمدي» Evangelium Das Ewige » و « وسائل لحل المسألة الاجتماعية » Mitteln Zur Loesung der Sozialen »، صدرا في شتوتجارت عن دار كارل شولر عام ١٨٦٦ Frage, Verlag Von Carl Scholer »، كما أصدر آخر مؤلفاته عام ١٨٧٧ بعنوان: "المسألة التركية

Die Tuerkische Frage Oder die sechste Zornschale von einem Laien, Stuttgart, bei Messler Buchdrucker, 1877."

وتوفي هارديج في ١١ تموز ١٨٧٩ في حيفا (٤٨) .

المستعمرات الالمانية في فلسطين والعلاقات الالمانية ــ العثمانية

ينبغي علينا، عند معالجتنا لموقف المانيا من المستعمرات الهيكلية في فلسطين، التمييز بين موقفين : موقف الحكومة الالمانية القيصرية، وموقف الراي العام الالماني .

ففي ظل المنافسة القائمة بين الدول الاوروبية الكبرى على الشرق العربي، كان من المفروض ان تستغلّ الحكومة الالمانية وجود طائفة من مواطنيها في فلسطين لصالحها . غير ان دراستنا للوثائق الموجودة في الارشيف السياسي لوزارة الخارجية الالمانية افضت الى عكس هذا الافتراض ؛ فقد اتصف الموقف الرسمي الالماني من هذه المستعمرات بالتحفّظ، لاعتقاد المسؤولين الالمان ان النفوذ الذي يمكن لالمانيا أن تحققه من خلال دعمها لهذه المستعمرات، لا يساوي المصاعب التي قد تواجهها في علاقاتها مع الدولة العثمانية .

غير ان وزارة الخارجية الالمانية كانت عاجزة عن التصرّف، انطلاقا من الاعتبارات السياسية الصرفة ؛ اذ تدخلت عدة عوامل أدت الى تصرفها ، في كثير من الاحيان ، بصورة مناقضة لما اعتبرته مناسبا في العلاقات الالمانية ــ العثمانية . ومن أهم هذه العوامل التي أكرهت برلين على تقديم العون للمستعمرين الالمان في فلسطين، الراي العام الالماني، والبلاط القيصري، ووزارة خارجية مملكة فورتمبرغ، والبحرية الالمانية .

كان الراي العام الالماني اكثر هذه العوامل فاعلية ؛ فقد كان المستعمرون الالمان في فلسطين ينشرون تقارير في الصحف الالمانية بصورة

متقطعة احيانا ومنتظمة احيانا أخرى عن نشاطاتهم . وكثيرا ما كانت هذه التقارير الصحفية تؤكد عداء السكان العرب والادارة العثمانية لهم . وكانت الأوساط القومية الالمانية تتجاهل في البداية المبالغة الواردة في هذه التقارير ، غير أنها غضبت لتجاهل حكومة برلين للمعاملة القاسية التي زعم المستعمرون أنهم يعاملون بها من طرف السلطة العثمانية . والواقع أن اهتمام أوروبا المتزايد بالاحداث الجارية في فلسطين منذ منتصف القرن التاسع عشر صاحبه زيادة في كمية المعلومات المنشورة في الصحف المحلية عن تلك الأحداث . وقد استغلّ قادة جمعية الهيكل هذا الوضع أحسن استغلال ، اذ كانوا خبراء في هذا الميدان الاعلامي .

أما البلاط الملكي ووزارة الخارجية في مملكة فورتمبرغ فقد كانا معاديين ، من حيث المبدأ ، لنشاطات جمعية الهيكل ، وذلك لاعتبارات دينية محضة . غير أن هذا الموقف الديني اتّجه الى الاعتدال بعد انتشار الليبرالية في أوروبا بوجه عام وفي المانيا بوجه خاص ؛ وخفّ ، مع الزمن ، هجوم الهيكليين في مجلتهم Sueddeutsche Warte على الكنيسة الانجيلية والسلطة السياسية في فورتمبرغ (٤٩) . واخذ العديد من أعضاء جمعية الهيكل يعودون الى حظيرة الكنيسة الانجيلية حتى بلغ عدد هؤلاء عام ١٨٧٤ نحو ثلث أعضائها . وبدلا من التطرّف الديني ، نما شعور جديد في مملكة فورتمبرغ بأن على الوطن الأم واجب حماية أبنائه في ديار الهجرة ، وهم يتعرضون لاهمال البروسيين . ولم تعد حكومة شتوتجارت تقتنع بالاعتبارات التي اعتمدت عليها وزارة الخارجية في برلين في تعاملها مع المستعمرين الالمان في فلسطين .

وكانت القوات البحرية الالمانية المرتبطة مباشرة بالقيصر ذات نفوذ واسع ، وتتلقى باستمرار تقارير من ضباط البوارج الحربية التي كانت

تتردد على الموانىء الفلسطينية . ولعل اهتمام القيصر فيلهلم الثاني بالبحرية زاد من أهمية هذه التقارير التي كان يقرأها القيصر نفسه، ويعلق عليها بخط يده . وكان معظم ضباط البحرية الالمان الذين يترددون على فلسطين يميل الى قبول وجهة نظر المستعمرين الالمان، القائلة بأن برلين لم تبذل الجهد الكافي لحمايتهم (٥٠) .

وعندما طلب أصدقاء القدس ، Jerusalem Freunde ، من البندستاغ في فرانكفورت أن تتوسط النمسا وبروسيا ، العضوان في الاتحاد الالماني ، لدى السلطان العثماني للسماح لهم بالاستيطان في فلسطين ، رفضت الدولتان هذا الطلب بصورة قطعية ، وذهبت النداءات الشخصية الموجهة الى مندوب بروسيا في الاتحاد ، أدراج الرياح (٥١) .

ولما سافر وفد جمعية الهيكل الى فلسطين عام ١٨٥٨ لدراسة امكانية الاستيطان فيها ، طلب من ملك بروسيا، فريدريش فيلهلم الرابع Friedrich Wilhelm IV ، الذي كانت تربطه بفلسطين صلات عاطفية دينية ، أن يزوّده بعدد من الخبراء الرسميين . وليس هناك ما يدل على استجابة ملك بروسيا لهذا الطلب (٥٢) .

ولما قرر الهيكليون عام ١٨٦٨ البدء بالاستيطان في فلسطين، طلبوا من جديد المساعدة من ملك بروسيا . وكان فيلهلم هوفمان، شقيق رئيس جمعية الهيكل (كريستوف هوفمان)، يشغل آنذاك أعلى منصب كنسي في برلين General superintend ent ، وقسيس البلاط الملكي ، وله نفوذ كبير على ملك بروسيا . غير أن الملك طلب من وزارة الخارجية أن تتعرف على موقف حكومة فورتمبرغ من جمعية الهيكل قبل تقديم أية مساعدة لها . وجاء جواب وزير الخارجية في شتوتجارت في ١٦ أيلول ١٨٦٨ يقول ان آراء الجمعية ومواقفها المعادية من الكنيسة الانجيلية تجعلها

عنصرا غير مرغوب فيه . كما أن الظروف الصعبة في فلسطين سوف تنهي مشروعها بالفشل (٥٣) . غير أن نفوذ فيلهلم هوفمان تغلب على راي وزارة الخارجية في شتوتجارت،وصدرت التعليمات الى الممثلين الدبلوماسيين البروسيين لدى الدولة العثمانية لتقديم العون للهيكليين . فبذلوا جهودا كبيرة لحماية الهيكليين في حيفا . ولكن الهيكليين لم يرضوا عن تردد بروسيا في دعمهم ، واصيبوا بخيبة أمل كبيرة (٥٤) .

واذا استثنينا الدعم الذي قدمته برلين للهيكليين اثناء المفاوضات الاولى مع البابِ العالي ، فان المستعمرات الالمانية في فلسطين لم تتمكن من اثارة اهتمام حكومتي برلين وشتوتجارت خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٨٦٨ و ١٨٧٤ . أما على صعيد الراي العام الالماني فقد حظي مشروع الهيكليين منذ بدايته بتاييد الصحافة الوطنية : ففي نهاية عام ١٨٦٨ نشرت صحيفة Augusburger Allgemeine Zeitung مقالة للبروفسور زيب Sepp ، مؤرخ الكنيسة والسياسي الالماني جاء فيها : « أن قيصر المانيا الكبير فريدريش بربروسّا Friedrich Barbarossa قد قضى نحبه من أجل امتلاك الارض المقدسة ، وترك للألمان واجب استعادة السيطرة على فلسطين العزيزة على قلب كل مسيحي . ولا بد أن تجد المانيا في نهاية المطاف نصيبها من الاستعمار ، ومن أجل هذه الغاية ينبغي تشجيع هجرة الالمان الى فلسطين (٥٥) .

أما موقف السلطات العثمانية الذي كان معارضا لقيام المستعمرات الالمانية في فلسطين،فقد تغير منذ قيام الوحدة الالمانية عام ١٨٧١ . فوالي دمشق رشيد باشا ، الذي تعرف على نشاط الانجيليين الالمان في بسرابيا ، كان يعطف على الالمان،حتى انه وعد القنصل الالماني العام في بيروت بمنح الهيكليين قطعة من الأرض في حيفا هدية . وقام هارديج بزيارة الوالي في

اثناء وجوده في بيروت،وعرض عليه خطة لاستغلال جبل الكرمل . فما كان من رشيد باشا الا ان ارسل سكرتيره الخاص ليعد تقريرا عن المنطقة المطلوبة في عام ١٨٧١ . وكانت خطة هارديج تقوم على انشاء مصح على قمة الكرمل،وربطه بمسبح على شاطىء البحر . ورغم جهود القنصل الالماني فريدريش كيلر ، Friedrich Keller : ، في سبيل تحقيق هذا المشروع ، امتنعت الحكومة العثمانية عن اصدار فرمان باهداء جبل الكرمل للهيكليين (٥٦) .

وحدث تغيير في موقف وزارة الخارجية الالمانية من الهيكليين بعد عام ١٨٧٥ . وكان السبب في ذلك المظاهرات التي قام بها المسلمون في فلسطين في اثناء الحرب البلقانية في ذلك العام . اذ خشي القناصل الاجانب قيام تحرك اسلامي ضد الاجانب في فلسطين ، وعلى راسهم المستعمرون الالمان (٥٧). وبناء على طلب الهيكليين ، وافقت الحكومة الالمانية على ارسال بوارجها الحربية الى الموانىء الفلسطينية في مظاهرة عسكرية،القصد منها تطمين المستعمرين الالمان . وفي ٢ حزيران ١٨٧٧ اصدر وزير الخارجية الالماني فون بيلوف، Von Buelow ،تعليماته الى السفير الالماني في اسطنبول بالخطوة الاستثنائية التي اتخذتها الحكومة الالمانية . وجاء في هذه التعليمات : « وافق القيصر على طلب المستشار بسمارك ارسال قواتنا البحرية الى الشرق ، آخذا بعين الاعتبار الوضع الراهن هناك .. ان الهدف الاول للاسطول ظهور العلم الالماني في الموانيء التركية من اجل حماية رعايانا هناك،ومن اجل التعبير عن اهتمام حكومة القيصر برعاياها في ضوء قلقهم الناشيء عن الحرب ... وحماية ارواحهم وممتلكاتهم، بالتدخل الفعال اذا اقتضت الضرورة ذلك » (٥٨) .

واصدرت وزارة الخارجية في برلين سلسلة من التعليمات الى

سفرائها في أوروبا لاقناع الدول الأوروبية بانه ليست وراء ارسال الأسطول الالماني الى الموانىء العثمانية اية دوافع سياسية ، وان السبب الوحيد هو الدفاع عن الرعايا الألمان في الشرق (٥٩) .

أما على الصعيد المحلي في فلسطين، فقد شعر المستعمرون الالمان في شباط ١٨٧٧ ، بينما كان مئات الشباب من المسلمين يتجهون الى يافا وحيفا للسفر الى سالونيك للمشاركة في القتال، انهم قد يتعرضون للأذى. وقام وكيل ضابط سابق الماني بتدريب الشباب الالمان على التمارين العسكرية في مستعمرة سارونا. وطلب هوفمان من القيصر حماية المواطنين الالمان من أي اعتداء محتمل من جانب المسلمين . وفي يوم عيد الفصح من عام ١٨٧٧ أرسى الطراد الالماني غاتسيله، Gazelle ، في ميناء يافا . وكان عليه أربعمئة جندي وثمانية عشر مدفعا . وكان يقود الطراد الأمير فون هاكه ، Graf Von Hacke ؟ وجاء هوفمان وممثلون عن الهيكليين الى ميناء يافا لتقديم شكرهم لقائد الطراد لحماية الحكومة الألمانية لمواطنيها . ولما رد قائد الطراد على زيارة هوفمان ورفاقه بزيارة مستعمرة سارونا ، أقام المستعمرون الالمان الاحتفالات الضخمة بهذه المناسبة . وحدث شيء مماثل لذلك عندما زار الطراد نفسه ميناء حيفا في الفترة نفسها . وفي صيف العام نفسه قامت أربع بوارج حربية المانية بزيارة الساحل السوري والفلسطيني (٦٠) .

وبدأت بعد هذه المظاهرة العسكرية مرحلة من العلاقات الوديه بين الهيكليين والحكومة الألمانية، واستجابت الحكومة الالمانية لطلب الهيكليين بدعم مدارسهم في فلسطين، فقدمت وزارة الخارجية الالمانية مبلغ ٣٧٥٠ ماركا منحة سنوية لهذه المدارس . وكان هذا المبلغ يعادل ربع الموازنة السنوية لتلك المدارس . ومن الجدير بالذكر ان هذه المنحة هي المعونة

المالية الرسمية الوحيدة التي قدمتها الحكومة الالمانية للهيكليين منذ بداية مشروعهم الاستعماري في فلسطين عام ١٨٦٨ وحتى عام ١٩١٨ .

/ وفي عام ١٨٨٠ سعى الهيكليون الى اعتراف الحكومة العثمانية بالتنظيم الاداري المستقل لمستعمراتهم . وايدهم في هذا المسعى القنصل الالماني العام في القدس مينشهاوزن ، Muenchhausen ؛ غير ان مسعاهم باء بالفشل . كما فشلت محاولتهم لدفع وزارة الخارجية الالمانية الى التوسط لدى الحكومة العثمانية لتوسيع حقوق الأجانب المقيمين في الولايات العثمانية (٦١) . وحدثت أزمة عنيفة بين الهيكليين والحكومة الالمانية سببها الخدمة العسكرية في المانيا ؛ ذلك أن عددا قليلا من المستعمرين الالمان قد اتم الخدمة العسكرية الاجبارية في المانيا قبل الهجرة الى فلسطين؛ وكان هؤلاء يتمتعون بالجنسية الالمانية وفقا للقانون الالماني . أما الذين كانوا دون سن السابعة عشرة عندما غادروا المانيا،ولم يعودوا اليها للقيام بالخدمة العسكرية،فقد كان من الصعب منحهم حقوق المواطنة الالمانية . ومن المعروف ان العديد من الالمان وغيرهم قد دخل في حماية القنصليات الالمانية في فلسطين،إمّا بصفتهم مواطنين يتمتعون بحق المواطنة الالمانية ، Reichsangehoerige ، وإمّا بصفتهم رعايا تحت الحماية ، Schutzgenossen . وفي عام ١٨٨٠ أصدر المستشار الالماني بسمارك تعليمات الى القناصل الالمان في الدولة العثمانية يطلب فيها رفع الحماية عمّن لم يُقض الخدمة العسكرية في الجيش الالماني .

/ ودخلت الأزمة مرحلتها الحرجة اثر وصول خليفة القنصل مينشهاوزن، الدكتور رايتس ، Reitz ، الى القدس عام ١٨٨١ ، فقد بدأ يدعو الهيكليين الى مكتبه واحدا بعد الآخر،ويتهمهم بأن القصد من مشروعهم الاستعماري في فلسطين هو التهرب من الخدمة العسكرية في الجيش

الالماني . ولما حاول رايتس أن يرفع الحماية عن بعض الهيكليين،ثار غضب هوفمان زعيمهم ، وبعث باحتجاج شديد اللهجة الى المستشار الألماني . وقال في رسالته الاحتجاجية هذه : اذا كان رايتس يتصرف بناء على تعليمات من وزارة الخارجية،فان الهيكليين سوف يبحثون عن دولة أخرىللدخول في حمايتها ، وربما اضطروا الى الانتقال الى بلد آخر . ورجا هوفمان المستشار الالماني أن يعتبر العمل في المستعمرات الالمانية في فلسطين،ولعشرين سنة قادمة،كخدمة عسكرية . وطلب تعديل قانون الخدمة العسكرية الالماني،بحيث يأخذ بعين الاعتبار وضع الهيكليين في فلسطين . فاذا تعذر ذلك طلب هوفمان ابقاء الوضع كما هو عليه حتى عام ١٨٨٤،ليتمكن الهيكليون من ايجاد حل آخر (٦٢) .

وجاء رد المستشار الالماني ليؤكد أن تصرفات رايتس مبنية على تعليمات تلقاها من وزارة الخارجية الالمانية ، وانه من المتعذر استثناء الهيكليين في قانون الخدمة العسكرية . ولكنه اعترف بحقهم في التمتع بالحماية القنصلية الالمانية ، شريطة أن يطبّق عليهم قانون الخدمة العسكرية اعتبارا من عام ١٨٨١ (٦٣) . ومنذئذ شرع الهيكليون يرسلون ابناءهم الى المانيا للقيام بالخدمة العسكرية هناك،ومدتها ثلاث سنوات(٦٤).

وحدث تغيّر مهم في السياسة الالمانية نحو الدولة العثمانية في الثمانينات من القرن التاسع عشر ؛ ففي عام ١٨٨٠ لبّى المستشار الالماني بسمارك طلب السلطان العثماني بتزويد بلاده بالخبراء الماليين والعسكريين. وبدأت المانيا منذئذ الغزو الاقتصادي، Penetration Pacifique ، للدولة العثمانية . وأصبح دعم الدولة العثمانية وتقويتها ، على امل ان تكون في يوم ما حليفة لألمانيا ، هدفا مهما من أهداف السياسة الخارجية الالمانية . واستقدمت الدولة العثمانية العديد من الخبراء العسكريين

والاداريين الالمان . واخذ الشباب العثماني يتردد على المعاهد العسكرية والعلمية الالمانية . وبدأ بنك فلسطين الالماني Deutsche Palaestina Bank نشاطه في القدس، ثم فتح فرعا له في يافا وآخر في حيفا . وأخذت البواخر الالمانية تتردد بانتظام على الموانىء العثمانية . وتأسست في عام ١٨٨٩ شركة بواخر الشرق الالمانية ، die Deutsche Levante-Linie وبدأت رحلاتها بأربع بواخر، ثم ما لبثت أن زادت عدد بواخرها الى العشرين في مطلع القرن العشرين (٦٥) . وفي عام ١٨٨٨ حصلت شركة المانية على امتياز مدّ سكة حديد الاناضول (٦٦) .

وفي العام نفسه اعتلى عرش المانيا القيصر فيلهلم الثاني . وبعد عام من ذلك قرر أن تكون أول زيارة له خارج المانيا الى السلطان العثماني . وقد أعجب القيصر بآراء السفير الالماني في اسطنبول، البارون هاتسفيلد ، Baron Hatzfeld ، (١٨٧٩ — ١٨٨١) بشأن التعاون الالماني — العثماني . فقد رأى هاتسفيلد أن فرنسا تمتعت بوضع متفوق في الدولة العثمانية حتى حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨ ، وأن انجلترا، التي حاولت الحلول محل فرنسا، قد اثارت شكوك الاتراك بها بعد أن ضمّت قبرص اليها عام ١٨٧٨، واحتلت مصر عام ١٨٨٢ . وينتهي السفير الالماني السابق الى القول إن فراغا قد وجد نتيجة لذلك، ولا بد لقوّة أوروبية من ملئه ، وإن المانيا هي الدولة المؤهلة لملء هذا الفراغ (٦٧) .

في نطاق الانفتاح العثماني على المانيا، ورغبة هذه الاخيرة في توسيع علاقاتها مع الدولة العثمانية، لم يكن للهيكليين الا اثر ضئيل جداً في هذا المجال ؛ اذ حرصت برلين على ازالة مخاوف العثمانيين من تجميع الاجانب على اراضيهم ، كما أن فلسطين تقع خارج نطاق المصالح الالمانية التي تركزت على طول سكة حديد بغداد .

لقد دار جدل طويل في أوساط وزارة الخارجية الالمانية حول موقف الحكومة الالمانية من الاستيطان الالماني في الدولة العثمانية على ضـــوء التطورات الجديدة . ففي عام ١٨٩١ طلب خليفة بسمارك، المستشاركابريفي، Caprivi ، من وزارة الخارجية ابداء رايها في اقتراح تقدم به السلطان العثماني الى القيصر فيلهلم الثاني، يتضمن انشاء مستعمرات المانيـــة على طول سكة حديد بغداد . وكانت أول مذكرة من وزارة الخارجيـــة تناولت هذا الاقتراح قدّمها الهر كيدرلين، Kiderlen ، من الدائرة السياسية في الوزارة . وقد بنى كيدرلين تحليله على تجربة الهيكليين في فلسطين . وجاء في مذكرته هذه :

« ان المستعمرات الالمانية في فلسطين لا تقدم لنا مثالا مشجعـــا . فالمستعمرون يكسبون قوتهم بصعوبة ، ويتعرضون لعداء السكان المحليين والسلطات التركية . واذا كان المستعمرون المقترح توطينهم في آسيـــا الصغرى من الالمان، فسيواجه تناصلنا التذمر الدائم من السلطات المحلية، كما ستواجه سفارتنا تدخل الباب العالي المستمر . وهذا أمر لا بد مـــن أخذه في الحسبان . وقد يدمّر علاقاتنا الطيبة مع الاتراك بدلا من أن ينميها. والمستعمرات في فلسطين خير مثال على ذلك » (٦٨) .

وقدم مدير الدائرة الاستعمارية في وزارة الخارجية الهر كايـــــزر، Kayser ، مذكرة مماثلة للمذكرة السابقة . يتبين لنا من هاتين المذكرتين أن وزارة الخارجية الالمانية كانت ترى في مستعمرات الهيكليين في فلسطين مثالا سيئا، وسببا دائما لتهديد العلاقات الالمانية ــ العثمانية بالتدهور . والواقع أن شكاوى الهيكليين اثارت غضب السلطات العثمانية ؛ كمـــا أن وجود المستعمرات الالمانية في فلسطين اثار حفيظة الدول الاوروبيـــة ضد المانيا . ولم تكن فلسطين، بامكانياتها المحدودة، البلد القادر على تلبيـــة

احتياجات المانيا ، فلا هي مصدر مهمّ للمواد الأولية، ولا هي سوق واسعة قادرة على استيعاب منتجات المانيا . ولذلك لم يكن فيها ما يستحق اهتمام المانيا الحقيقي في هذه الفترة .

ولعل ابرز الاحداث السياسية التي شهدتها فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر، زيارة القيصر الالماني فيلهلم الثاني، في تشرين الاول عام ١٨٩٨، وهي زيارته الثانية للشرق . وكان الغرض المعلن من هذه الزيارة الحج الى الاماكن المقدسة : ففي ٢٥ تشرين الاول من ذلك العام، أرست ثلاث بوارج المانية تُقِلّ القيصر وحاشيته في ميناء حيفا . وفي صباح اليوم التالي تجمّع كافة افراد المستعمرة الالمانية في حيفا في باحة القنصلية الالمانية من اجل تحية القيصر . وقام فريدريش لانجه ، Friedrich Lange ، رئيس الجماعة الهيكلية في حيفا (ومؤرخ الجمعية) بالقاء كلمة في حضرة القيصر، شكره فيها على الدعم والمؤازرة التي يلقاها الهيكليون من القيصر، وبخاصة في ميدان التعليم . واكّد على ضرورة توثيق الصلات بين الهيكليين والوطن الام . وردّ القيصر عليه بالاعراب عن سعادته اذ يرى في قلب الارض المقدسة مستعمرة المانية لها علاقات وثيقة بالوطن الام، وقال بانه سوف ينقل الى ملك فورتمبرغ ما حققه مواطنوه من انجازات ؛ واكد حمايته لكافة الالمان. كما القى الدكتور شوماخر ، Dr. G. Schumacher ، لبن أحد قادة الجمعية، كلمة في حضرة القيصر أشار فيها الى قيمة الابحاث العلمية الالمانية عن فلسطين واحوالها (٦٩) . وتجوّل القيصر في المستعمرة، ثم اتجه الى يافا ومنها الى القدس . وخلال سفره الذي استغرق يومين، زار القيصر مستعمرات يافا وسارونا وريفايم، حيث استقبل استقبالا حافلا (٧٠) .

وفي اثناء هذه الزيارة اصبحت فلسطين والمستوطنون الالمان فيها موضوع الساعة في المانيا . وتاسست في شتوتجارت في تشرين الاول ١٨٩٩

« جمعية تطوير الاستيطان الالماني في فلسطين » Gesellschaft Zur Foerderung der deutschen Ansiedlungen in Palaestina » تحت رعاية البارون فون ايليريكسهـــــــا وزن ، Freiherr Von Ellerichshausen ، من اجل تزويد الجمعية بالتبرعات المالية لتوسيع نشاطها وشراء المزيد من الارض . وتولى ادارة الجمعية الامير فون اوراخ، K. Von Urach ، بينما تولى رئاستها الفخرية النائب العام في المملكـــة الدكتور فون رو ب ، Von Rupp ؛ وتمكنت هذه الجمعية من جمع مبلـغ ثلاثمئة الف مارك،حوّلت الى جمعية الهيكل،فاشترت به قطعة من الارض مساحتها ثمانية كيلومترات مربعة بالقرب من اللد،غير بعيد عن سكة حديد يافا ــ القدس . وانشأت عليها مستعمرة فيلهلما Wilhelma (٧١) .

واذا كانت زيارة القيصر لفلسطين قد بعثت الحماس في نفوس سكان مملكة فورتمبرغ،فانشأوا جمعية تطوير الاستيطان الالماني في فلسطين ، فلم يتجاوز دعم القيصر للهيكليين اعجابه بمنجزاتهم،وتعاطفه معهم،ووعده لهم بأن يسعى لدى السلطات العثمانية لِتُعامِلَهم المعاملـــــة التـــــي يستحقونها (٧٢) . واذا عدنا الى وثائق الارشيف السياسي لـــوزارة الخارجية الالمانية لمعرفة نتائج زيارة القيصر هذه ، لم نجد فيها ذكرا أو اشارة للمستعمرات الالمانية في فلسطين ؛ فقد لخّص نتائج هذه الزيـــارة القائم بالاعمال الالماني في اسطنبول في تقريـــر بعـث بـه الـى وزارة الخارجية (٧٣) ، ووُزّعت نسخ من هذا التقرير ، بناء على أوامر القيصر، الى كافة السفارات الالمانية في العالم ؛ وقد ورد في هذا التقرير أن الدافـع الأول لزيارة فلسطين هو دافع ديني . ولم ترد فيه اية اشارة للمستعمرات الالمانية فيها . والواقع أن زيارة القيصر لفلسطين لم تُحْدِث اي تغيير في السياسة الالمانية الرسمية نحو المستعمرات الهيكلية ؛ غير ان فلسطين بقيت منذئذ موضوع اهتمام الراي العام الالماني ؛ فقد اثار الوصـــــف

الحماسي للمستعمرات موجة من التعاطف الشعبي، ساعدت المستعمرين على التغلّب على المصاعب التي واجهوها، وبناء ثلاث مستعمرات جديدة . غير أن الأموال اللازمة لبناء هذه المستعمرات جُمعت من مواطني مملكة فورتمبرغ وحدها (٧٤) . وذهبت جهود جمعية تطوير الاستيطان الالماني في فلسطين من اجل الحصول على تعاون القيصر الالماني لشراء الاسهم في المؤسسة المالية التي انشأتها ، سدى . هذا وقد لقيت الجمعية المذكورة اهتماما خاصا في مملكة فورتمبرغ ؛ ففي عام ١٩١٠ طلب وزير خارجية المملكة من ممثلها في برلين أن يتوسط لدى وزارة الخارجية الاتحادية لتضغط على الدويتش بانك، Deutsche Bank ، لمنح جمعية الهيكل قرضا مقداره مئة الف مارك للحفاظ على الطابع الالماني لمستعمرة سارونا، وتطوير مستعمرتي فيلهلما وبيت لحم في الجليل . وبينما كانت المساعي جارية للحصول على القرض المطلوب، انفقت حكومة برلين مبلغا يساوي عشرين ضعف هذا المبلغ على مؤسسة القيصرة اوغستا فكتوريا، Kaiserin Auguste Victoria Stiftung ، في القدس التي انشئت تخليدا لزيارة زوجة القيصر للمدينة المقدسة (٧٥) .

ومع مُدّ سكة حديد الحجاز وقيام الفرنسيين بمد السكك الحديدية في فلسطين، ازداد قلق الهيكليين، وشعروا ان البلاد تكاد تقع تحت النفوذ الفرنسي . وفي صيف عام ١٩١٣ قام وفد من جمعية الهيكل في فلسطين، مؤلف من رئيسها كريستيان روهرر Christian Rohrer ، وغوتليب شوماخر Gottlieb Schumacher ، بزيارة شتوتجارت وبرلين للسعي لدى حكومة فورتمبرغ وحكومة برلين الاتحادية لتجنّيب وقوع فلسطين في منطقة النفوذ الفرنسي . وفي آب ١٩١٣، قدّم الوفد مذكرة الى فون روزنبرغ Von Rosenberg ، مدير الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية في برلين ؛ وسال شوماخر المسؤول الالماني عن مصير المستعمرات

الالمانية في حالة قبول المانيا بوقوع فلسطين تحت الهيمنة الفرنسيـــة . وتضمنت مذكرة الوفد الهيكلي اشادة بدور المستعمرين الالمان في تطوير فلسطين،ورفع سمعة المانيا . كما اقترحت ايجاد حلّ لمستقبل فلسطـــين تقبل به الدول الكبرى ، وذلك بأسرع وقت ممكن،وقبل ان يفوت الأوان . واقترح شوماخر في هذا الصدد وضع فلسطين (من الحدود المصرية الى راس الناقورة شمالا،وحتى سفوح جبل الشيخ شرقا) تحت حكم أمـــير أوروبي . وبَرّر اقتراحه هذا بانه لا يتعارض والمصالح البريطانيـــــة والروسية في المنطقة . واقترح بالمقابل منح فرنسا المنطقة الواقعة شمال فلسطين،دون الاضرار بمصالح الدول الكبرى فيها (٧٦) .

وسعى الوفد لدى وزارة خارجية مملكة فورتمبرغ لقبول مقترحاتـــه السابقة الذكر ، فأيّدتها،وطلبت من ممثلها في برلين ان يجسّ نبـــض وزارة الخارجية الاتحادية . فجاء الرد : ان سورية لا تقع في منطقة اهتمام المانيا، لانها بعيدة عن سكة حديد بغداد (٧٧) . وهكذا خابت آمال الوفد الهيكلي من موقف حكومة برلين ، وعاد الى فلسطين خالي الوفاض . وجـــاءت الاتفاقية الفرنسية ـ الالمانية لعام ١٩١٤ (٧٨) لتؤكد اعتراف المانيـــا بوضع فرنسا الخاص في فلسطين،وبخاصة في موضوع بنـــاء السكك الحديدية .

غير أن فكرة فصل فلسطين عن الدولة العثمانية ووضعها تحـــت الهيمنة الأوروبية،لم تغب عن ذهن بعض المسؤولين الالمان : فقد اقترح السفير الالماني في اسطنبول،في رسالة بعث بها الى المستشار الالماني الأمير فون هيرتلنغ ، Graf Von Hertling ، انشاء مملكة في فلسطين لحل مسالة الاماكن المقدسة ، معتقدا بأن هـــذا الحل ســـوف يرضي المسيحيين واليهود في العالم ، شريطة ايجاد حلّ مُرضٍ للاماكن المقدسة

الاسلامية في القدس (٧٩) . وكان القنصل الالماني العام في القدس الدكتور بروده Brode ، قد اقترح على السفير الالماني في اسطنبول اقامة مملكة صغيرة في القدس تضمّ بيت لحم جنوبا،وتمتد الى نهر الأردن والبحر الميت شرقا،والى قرية رام الله شمالا ، وأن يعتلي عرشها أمير كاثوليكي الماني؛ شريطة أن تبقى هذه المملكة تحت السيادة العثمانية الاسمية ، وأن تُدفع للخزينة العثمانية مليون جنيه استرليني ، وأن يُحتفظ المسلمون والمسيحيون واليهود بأماكنهم المقدسة فيها . واقترح بروده أيضا أن تسعى الحكومة الالمانية لدى الباب العالي للتوسع في الاستعمار اليهودي في فلسطين،ومنح اليهود حكما ذاتيا في البلاد (٨٠) . والواقع أن هذه المقترحات قد جاءت في فترةٍ بَلَغَ النشاط الصهيوني في المانيا أوجه من أجل الحصول على وعد رسمي من الحكومة الالمانية مماثل لتصريح بلفور .

يتضح مما سبق أن الحكومة الالمانية لم تَسْعَ الى تحقيق أية مطالب علنية أو سرية في فلسطين،منذ قيام الرايخ الالماني عام ١٨٧١ وحتى نهاية الحكم العثماني عام ١٩١٨ ؟ كما أنها لم تستغلّ عنصر المستعمرين الالمان لاغراضها السياسية في البلاد .

علاقات المستعمرين الالمان بالسكان العرب

اتّسَمت العلاقات بين المستعمرين الالمان والسكان العرب في فلسطين بالشك والريبة والحذر . لقد أدرك كريستوف هوفمان،اثناء رحلته الاستطلاعية الى فلسطين عام ١٨٥٨،أن مشروعه لن يحظى بتأييد السلطات العثمانية فحسب ، وانما سيواجه مقاومة حقيقية من جانب السكان العرب، الذين يشكل المسلمون اكثر من ٩٠٪ منهم (٨١) .

ولما بدأ استيطان الهيكليين في فلسطين،كانوا يحملون افكارا واضحة

عن العداء العربي لهم . وساهمت أحداث فلسطين في تشدد كل فريق في موقفه . وأدرك العرب أن الهيكليين الالمان ليسوا كبقية المقيمين الاجانب في فلسطين ؛ فمشروعهم ليس خيريا كمشاريع الارساليات التبشيرية المنتشرة في البلاد . واكتشفوا أيضا أن الالمان قد جاؤوا الى البلاد تاركين أوطانهم بهدف واحد هو الاستيلاء على أراضيهم وامتصاص دمائهم (٨٢) . ولذلك كان من المتعذّر على مشروع الاستيطان الالماني أن يكسب قلوبهم . وخلافا لما كان يعتقده أو يزعمه الالمان، لم تساهم انجازاتهم في فلسطين الا في بعث كراهية العرب لهم (٨٣) . ونظر الالمان ، بالمقابل ، الى العرب نظرة استعلاء وتفوّق ، فزادت من توتر العلاقات بين الفريقين (٨٤). وكان قادة جمعية الهيكل يخشون الاختلاط بالسكان العرب والذوبان في المجتمع المحلي ؛ فهم « شعب الله » المكلف ببناء مملكة الرب في القدس . لذلك تحاملوا على العرب دوما ، وبرروا هذا التحامل في المقالات التي كانوا ينشرونها في مجلتهم Sueddeutsche Warte : فالشرقي في نظرهم « وقح متعجرف بالطبيعة ، يمارس السرقة والاستجداء ، ولا يحني هامته الا للقوة والمال » (٨٥) .

وكان قادة الجمعية يحذّرون اعضاءها من التزاوج مع العرب . واستغلوا حالة زواج فاشلة بين فتاة المانية وشاب مسيحي عربي في دعايتهم هذه . وكانوا يقولون « من الأفضل للألمانيات أن يبقين عوانس من أن يلقين بأنفسهن في أحضان الرعاع » . (٨٦)

ولم يُخْفِ كريستوف باولوس، الذي خلف هوفمان في رئاسة جمعية الهيكل بين عامي ١٨٨٤ و ١٨٩٠ ، والذي كان من اتباع الفلسفة الانسانية، احتقاره للعرب . وحينما تكونت شركة للنقل بين يافا والقدس من الالمان والعرب واليهود عام ١٨٨٤ ، وأوكل تنظيمها الى الالمان، كتب

باولوس بهذا الصدد يقول : « تعتبر هذه الاتفاقية نصرا للأمانة الالمانية على دسائس العرب واليهود القذرة . لقد أمكن قيام الشركة لأن ادارتها والاشراف على ماليتها قد أوكلا الى الالمان، الذين تعترف كافة الاطـــراف بأمانتهم ومثابرتهم على العمل . دعنا نأمل أن يكون لهذا الانجاز الذي حققته النزاهة الالمانية ، تاثير ايجابي على السكان المحليين . ويمكن اعتبار هذا العمل الانموذجي عملا تبشيريا ، لأن الهيكليين يؤمنون بأن على الشعب الذي يتوجه اليه المبشرون، أن يتحول الى كائنات بشرية قبل أن ينظـــر في أمر تنصيره » . (٨٧)

ازاء هذه النظرة الاستعلائية المزرية ، لا عجب اذا عجز الهيكليون عن الوصول الى قلوب العرب، واقامة علاقات طيبة معهم . وقد اعتـــرف بهذا الوضع السفير الالماني في اسطنبول، مارشال فون بيبرشتايـــن ، Marschall Von Bieberstein ، في رسالته التي بعث بها الـــى المستشار الالماني فون بيلوف، Von Buelow ، والمؤرخة في ٨ ايـــار ١٩٠٩ ، والتي اقتبس فيها اقوال نائب القنصل الالماني في حيفا (٨٨) .

ورغم حالة الشك والحذر والكراهية التي سادت العلاقات بـــين المستعمرين الهيكليين والعرب في فلسطين ، لم تحدث خلال الحكم العثماني سوى حادثة قتل واحدة، ذهب ضحيتها أحد هؤلاء الالمان، وبسبب استفزازي . وكان سبب الحادثة التي تمت عام ١٩١٠ ، مقتل أحد فلاحي قرية الطيرة (قرب حيفا) على يد أحد الالمان من مستعمرة حيفا ، أثناء اقدام الأول على السرقة من المزرعة الالمانية . وثار اهل القتيل لقتيلهم، وهاجموا في اليـــوم التالي للحادث أحد الالمان، واسمه فريتس أونجر ، Fritz Unger ، في مستعمرة نويهاردتهوف واردوه قتيلا (٨٩) .

وخشي المستعمرون الالمان اعتداء المسلمين عليهم أثناء الحـــرب

البلقانية (١٨٧٥ ــ ١٨٧٨) ، وطلبوا الحماية من حكومتهم ؛ فرأت هذه أن تبعث ببوارج حربية الى الشواطىء الفلسطينية . فكانت خطوة لا سابقة لهـــا .

وشعر المستعمرون الالمان بضيق شديد عندما أخذ العرب ينافسونهم في الميدان الاقتصادي ؛ فقد حل العرب محل الناقلين الالمان بالشاحنات على طريق حيفا ــ عكا ، كما الحقوا اضرارا كبيرة بشركة السفريات الالمانية على طريق يافا ــ القدس،بتخفيض أجور السفر . وواجه الحِرَفيون الالمان منافسة مماثلة من العرب . وزاد من كراهية العرب للمستعمرين الالمـــان واليهود حماية الدول الأوروبية الكبرى لهم . ولم يشعر العرب في يوم من الأيام بأن وجود المستوطنين الالمان أو غيرهم فيه أية فائدة لهم (٩٠) .

علاقة المستعمرين الالمان بالطائفة اليهودية

اتخذت جمعية الهيكل موقفا عدائيا من اليهود واليهودية قبل استيطان أفرادها في فلسطين ، لاعتبارات دينية محضة . غير ان هذا الموقف تبدل بعد استيطان الهيكليين في فلسطين ، ولم يترددوا في التعاون مع المهاجرين اليهود والمستعمرات اليهودية لمواجهة المجتمع العربي المناهض لهم . واخذ هذا الموقف يتغير مع قدوم آلاف اليهود من شرق أوروبا في منتصف الثمانينات من القرن التاسع عشر ، وذلك بسبب منافسة المستعمرين اليهود الجدد لهم في الميادين الاقتصادية .

فقد كان هوفمان،مؤسس جمعية الهيكل،يعتقد أن الأرض المقدسة ينبغي أن تكون ملكا لشعب الله ، وان الله كان ينوي في البداية منح هـــذه البلاد للشعب اليهودي ، غير ان هذا الشعب غرق في الفساد والرذيلة، ولم يعد شعبا مقدسا . الهيكليون وحدهم هم الذين أوجـــدوا الشعب المقدس الجديد « شعب الله » . وتأكد هذا الاعتقاد لدى هوفمان عند

زيارته لفلسطين عام ١٨٥٨، ورأى « حالة اليهود السيئة، وكسلهم وعجزهم عن تخليص البلاد من حالتها المتدهورة » . ووجد الالمان في بداية استيطانهم مبررا للتفاهم مع الأقلية اليهودية، للتخلص من العزلة التي يعيشونها (٩١) .

اما بالنسبة الى اليهود ، فقد حاول زعماء هواة صهيون « حوفيفي تسيون » (٩٢) الاستفادة من تجربة المستوطنين الالمان في المستعمرات الزراعية ؛ وكانوا يترددون عليهم محاولين تجنب الأخطاء التي وقعوا فيها . وحينما بدأت الهجرة اليهودية المنظمة الاولى (١٨٨٢ — ١٩٠٤) التي تألفت من موجتين كبيرتين هما: الاولى (١٨٨٢ — ١٨٨٤)، والثانية (١٨٩٠ — ١٨٩١)، بدأ موقف المستوطنين الالمان يتغير . وكانت المنافسة الاقتصادية وراء هذا الموقف المعادي . صحيح أن نوعية الانتاج اليهودي من الحِرَف والصناعات الخفيفة كانت أدنى من نوعية الانتاج الالماني، الا أن انخفاض اسعار الانتاج اليهودي جعل من الحِرَفيين والصناع اليهود منافسين خطرين للألمان (٩٣) .

وشعر المستعمرون الالمان بالخطر الحقيقي حينما طلب ثيودور هرتسل ، Theodor Herzl ، في آب ١٨٩٧ من أعضاء المؤتمر الصهيوني الأول المنعقد في مدينة بازل السويسرية، الموافقة على برنامج الحركة الصهيونية . ومنذ أن صدرت صحيفة « العالم ، Die Welt » الناطقة بلسان الحركة الصهيونية في حزيران ١٨٩٧ ، شعر الهيكليون انهم يواجهون حركة سياسية يهودية منظمة، تؤكد صحيفتها كل يوم على اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .

ومنذ مطلع عام ١٩٠٨ شنّت صحيفة الهيكليين Sueddeutsche Warte هجومها على الحركة الصهيونية، وعلى مختلف أوجه نشاطاتها . وكان يقود

هذه الحملة فريتس لورخ ، Fritz Lorch ، احد الالمان المولودين في فلسطين،والذي انتقل الى شتوتجارت ليعمل في صحيفة الجمعية . وقد أبرز لورخ عدم ولاء الصهاينة للدولة العثمانية،وتعاونهم مع بريطانيا من اجل تمزيق اشلائها . أما الصهاينة فقد حاولوا التقرب من المستوطنين الالمان والتفاهم معهم،حرصا منهم على تجنّب الصدام مع الامبراطورية الالمانية الناشئة.وامتنعت صحيفة « دي فيلت » الصهيونية عن الرد على حملة لورخ الاعلامية (٩٤) :

وبمناسبة انتقال صحيفة الهيكليين Sueddeutsche Warte من شتوتجارت الى القدس في كانون الثاني عام ١٩١٢،نشرت صحيفة « دي فيلت » مقالا مطولا طالبت فيه المستوطنين الالمان أن يبدوا مزيدا من التفهم نحو المصالح المشتركة لليهود والالمان . وأكد المقال على الفوائد التي قد يجنيها المستوطنون الالمان والامبراطورية الالمانية من المهاجرين اليهود، الناطقين باللغة الالمانية،والذين يفضّلون اقامة علاقات تجارية مع المانيا (٩٥) .

ومن الجدير بالذكر أن المانيا ، في هذه الفترة ، كانت مقرًّا لمعظم المؤسسات والمراكز التابعة للحركة الصهيونية . وانساق المستوطنون الالمان وراء سياسة المانيا الرسمية منذ عام ١٩١٣ ؛ تلك السياسة التي كانت تحبذ الاستفادة من الوجود اليهودي في فلسطين من أجل تنمية المصالح الالمانية فيها . وشهدت العلاقات بين الاقلّيتين:الالمانية واليهودية،تحسنا ملحوظا عشية قيام الحرب العالمية الاولى (٩٦) . غير ان هذا التحسن في العلاقات كان مؤقتا ولفترة قصيرة جدا .

المصـــــادر :

(١) Hajjar, J. : L'Europe et les Destinees du Proche Orient, Bloud and Gay, Belgium, 1970, pp. 326-7

Hyamson, A.M.: British Projects for the Restauration of Jews to Palestine, in "Publications of the American Jewish Historical Society", 1918, No. 2, pp. 129-131.

(٢) Hajjar, J. : op. cit, pp. 327-8

(٣) Hyamson, A.M. : op. cit, p. 136, Hajjar, J. : op. cit, p. 329

(٤) Tibawi, A.L. : British Interests in Palestine, Oxford University Press, London, 1961, p. 33

Hyamson, A.M. : The British Consulate in Jerusalem in relation to the Jews of Palestine (1838-1914) London, 1939, vol. I,p. 45

(٥) ولد موسى مونتفيوري عام ١٧٨٤ في ليفورن Livourne . ونجح في حياته كرجل اعمال يهودي . واصبح نبيلا بسبب صلة النسب باسرة روتشيلد في بريطانيا . وانسحب في عام ١٨٢١ من اعمال التجارة وكرس حياته للاعمال الخيرية الاجتماعية المتعلقة باليهود. وقام بعدة زيارات لفلسطين بين عامي ١٨٢٧ و ١٨٧٥ .

Loewe, L.(ed.):Diaries of Sir Moses and Lady Montefiore, London 1890, vol. I, pp. 165 ff.

Hajjar, J. : op. cit, p. 327.

(٦) Hajjar, J. : op. cit, pp. 330-331

(٧) حول تفاصيل اقامة مولتكه في اسطنبول انظر :

Moltke, Helmuth von : Briefe ueber Zustaende und Begebenheiten in der Tuerkei aus den Jahren 1835 bis 1839, Berlin, 1893.

(٨) Wagner, R. : Moltke und Muehlbach zusammen unter dem Halbmonde (1837-1839), Berlin, 1893.

Moltke, Helmuth von : Vermischte Schriften, Berlin, 1892, Bd. 2, pp. 279-288.

Lewin, E : The German Road to the East, William Heinemaun, London, 1916, pp. 22-3.

Hajjar, J, : Op. Cit., P. 369.

(٩ Geschichte der Deutschen Evangelischen Kirche und Mission im Heiligen Lande, p. 4.

Tibawi, A. L. : Op. cit, pp. 44-5.

Richter, J. : A History of Protestant Missions in the Near East, A.M.S. Press, New York (1970) Reprinted Edition of 1910, p. 237.

(١٠ Brugger, Hans : Die deutschen Siedlungen in Palaestina, Bern, 1909, pp. 11-12.

Carmel, Alex : Geschichte Haifas in der tuerkischen Zeit (1516-1918), Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1975, p. 80.

(١١ ولد كريستوف هوفمان في بلدة ليونبرغ Leonberg في الثاني من كانون الاول عام ١٨١٥م وانتقل مع والده الى كورنتال . وكان يتردد على خاله القس باومـــــان Baumann في شتوتجارت . واهتم كريستوف منذ صباه بالشعر والتاريـــخ . ودرس في جامعة توبنجن الفلسفة والتاريخ . واعجب بهيجل وكانت من الفلاسفة الاثيرين. ولما انهى دراسته الجامعية عام ١٨٣٧ اشتغل معلما في مدرسة انشاها صديقه عمانوئيل باولوس بالقرب من لودفيجزبورغ . غير انه لم يقم فيها طويلا،واضطر تحت ضغط والده الى العمل في مدارس الكنيسة في فورتمبرغ . وفي عام ١٨٤١،كرّس هوفمان نفســـه للتعليم في المدرسة التابعة للجمعية التي يرئسها والده .

Brugger, H. : Op. cit., pp. 12-20

(١٢ Brugger, H. : op. cit, pp. 20-32

Hoffmann, Christoph : Errinnerungen aus meiner Jugend, Jerusalem, 1881, p. 720.

(١٣ Carmel, Alex; The German Settlers in Palestine and their Relations with the local Arab Population and the Jewish Community (1868-1918) in "Studies on Palestine during the Ottoman Period, Jerusalem,

1975, p. 442.

Geschichte der deutschen Evangelischen Kirche. pp.132-3

Gaeschichte وسيشار اليه فيما بعد .....

Alonzo, Alphonse d' : Les Allemands en Orient, Oscar Schepens, Bruxelles, 1904, p. 37

Brugger, H. : op. cit, pp. 26-7

Carmel, Alex : Geschichte Haifas . . . p. 81

١٤) ولد جورج دافيد هارديج في الثاني من نيسان عام ١٨١٢ في قريـــة اغلوزهايـــم Egiosheim قرب لودفيجزبورغ في مملكة فورتمبرغ . اتم دراسته الثانوية وعمل في التجارة . ثم دخل في منظمة سرية تنادي بالنظام الجمهوري . وتنقّل بين شتوتجارت وبلجيكا وباريس خلال عامي ١٨٣٠ و ١٨٣١ . وفي باريس تعرف على عدد من اللاجئين السياسيين الالمان المتحمسين للنظام الجمهوري . وصادق تاجر كتب اسمه فرانـــك Frank كان قد اصدر في باريس صحيفة "Le Siècle" . وعاد فرانك الى فورتمبرغ في خريف ١٨٣١ . وعزم هارديج على دراسة الطب في جامعـــة غوتنجن فلم يوفق ، اذ كانت السياسة والنضال من اجل الحرية اعز على قلبه مـن الدراسة . فشارك في محاولة العصيان الفاشلة في فورتمبرغ عام ١٨٣٢ ، وحكم عليـه بالسجن لمدة اربعة عشر عاما . ثم استانف الحكم عليه لدى محكمة الاستئنـــاف في شتوتجارت فخفضت الحكم عليه بالسجن الى تسعة اعوام . درس هارديج اثناء وجوده في السجن الكتاب المقدس ، فاثر ذلك على سلوكه وفكره . ولما افرج عنه عام ١٨٤٠ لـم يسمح له بالاقامة في فورتمبرغ فرحل إلى سويسرا حيث بقي حتى عام ١٨٤٤ حينما سمح له بالعودة الى وطنه بمناسبة الاحتفال باليوبيل الفضي لاعتلاء الملـــك فيلهلـــم Wilhelm عرش فورتمبرغ .

Brugger, H : Op. cit, pp. 5-10.

١٥) Brugger, H. : Op. cit, p. 35.

١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٥ ــ ٣٦ .

Carmel, Alwx, The German settlers., p. 443.

Geschichte . . , p. 134

١٧) Carmel, Alex, Op. cit, p. 443, Geschichte . . . p. 134.

١٨) Brugger, H. Op. cit, p. 37.

Carmel, Alex : Geschichte Haifas . . . p. 81.

(١٩) Brugger, H. : Op. cit, p. 38.

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٤٢ ــ ٤٣ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ ــ ٤٧ .

Carmel, A. : Geschichte Haifas . . . p. 82.

(٢٣) Eliav, M. : German Interests and the Jewish Community in the 19th Century Palestine, in"Studies on Palestine during the Ottoman Period, Jerusalem, 1975" p. 431.

(٢٤) Brugger, H. : Op. cit, p. 49.

(٢٥) انظر تفاصيل عملية الشراء في مجلة Sueddeutsche Warte, 22.1.1869

(٢٦) Brugger, H. : Op. cit, p. 51.

(٢٧) Carmel, A. : Geschichte Haifas . . . p. 83.

(٢٨) Grothe, Hugo : Bevoelkerung und Wirtschaftliche Lage der Schwaebischen Ansiedlungen in Palaestina, Palaestina 1.1902,p. 233.

Carmel, A. : Geschichte Haifas . . . p. 84.

(٢٩) Carmel, A. : The German Settlers . . . p. 445.

(٣٠) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abteilung VII, Po. 25, Bd. I.

(٣١) Carmel, A. : Geschichte Haifas . . . pp. 87-9.

(٣٢) Rosen, F. : Oriental Memoirs of a German Diplomatist, Methuen and Co., London, 1930, pp. 36-7.

(٣٣) Brugger, H. : Op. cit, p. 52.

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٥٣ ــ ٥٤ .

(٣٥) Brugger, H. : Op. cit, p. 61.

(٣٦) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abt. VII, Po 25, Bd. I.

(٣٧) Brugger, H. : Op. cit., pp. 62-3.

(٣٨) Answaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abt. VII, Po 25, Palaestina, Bd. I.

(٣٩ Brugger, H. : Op. cit, p. 95.

(٤٠

(٤١ المصدر نفسه ، ص ٩٤ .

(٤٢ Answaertiges Amt, Politische Archiv, Politische Abt. VII, Po. 25, Palaestina

تقرير القنصل الالماني في القدس فيليب فورست Ph. Wurst الى سكرتير لجنة التقسيم الفنية الفلسطينية في ١٢ تموز ١٩٣٨ .

(٤٣ Geschichte . . . pp. 136 - 7

(٤٤ انشئت جمعية بيت المقدس في برلين في ١٨٥٢/١٢/٢ من اجل دعم المشروعات التبشيرية الانجيلية الالمانية في فلسطين Geschichte . . . , pp. 51-62.

(٤٥ Geschichte . . . p. 137, Brugger, H. : Op. cit, p. 66.

(٤٦ Seidel, H. J. : Der Britische Mandatstaat Palaestina im Rahmen der Weltwirtschaft, Walter de Gruyter, Berlin, 1926, pp. 81-2.

(٤٧ Brugger, H. : Op. cit, pp. 85-9.

(٤٨ المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

(٤٩ Carmel, A. : The Political Significance of German Settlement in Palestine (1868-1918), in "Germany and the Middle East 1835-1939 Tel-Aviv University, Tel-Aviv, 1975, pp. 48-9.

(٥٠ المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

(٥١ Haupistaatarchiv Stuttgart, Koeniglich Auswaertiges Amt.

(٥٢ Sueddeutsche Warte, 1.7. 1858, p. 2., 22.7. 1858, p. 114, 16.9. 1858, pp. 145-6.

Lange, Friedrich : Geschichte des Tempels, Stuttgart, 1899, p. 167.

(٥٣ Hauptstaatarchiv. Akten des Kabinets IV, Nr. 1585.

(٥٤ Sueddeutsche Warte, 12.2. 1874, pp. 25-6, 26.3.1874, pp. 70-71.

(٥٥) Brugger, H. : Op. cit, p. 48.

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٥٨ ــ ٦٠ .

(٥٧) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 126, Muenchhausen an Bismarck, Jerusalem, den 30 Mai 1897.

(٥٨) المصدر نفسه .

(٥٩) Carmel, A. : The Political Significance . . . , p. 54.

(٦٠) Brugger, H. : Op. cit, pp. 84-5.

(٦١) Carmel, A. : The Political Significance . . . p. 55.

(٦٢) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(٦٣) Sueddeutsche Warte Vom 18 Maerz 1882, p. 4.

(٦٤) Carmel, A. : The Political Significance . . . p. 57.

(٦٥) Brugger, H. Op. cit, p. 90.

(٦٦) Carmel, A. : The Political Significance, . . . p. 59.

(٦٧) Holborn, H. : Deutschland und die Tuerkei (1878-1890), Berlin, 1926, p. 106.

(٦٨) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 189, Vol. I.

(٦٩) Brugger, H. : Op. cit, P. 92.

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

(٧١) المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

(٧٢) Carmel, A. : The Political Significance . . . p. 63.

(٧٣) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Preussen 4 (geheim), Vol. 9, Schlaezer an Hohenlohe, Istambul, 15.11. 1898

نص تقرير القائم بالاعمال الالماني في اسطنبول .

(٧٤) Carmel, A. : The Political Significance . . . p. 63.

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ٦٥ ــ ٦٦ .

(٧٦) المصدر نفسه ، ص ٦٧ ــ ٦٩ .

(٧٧) Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 177, Vol.10.

(٧٨) Hurewitz, J. : Diplomacy in the Near and Middle East, Princeton, Vol. 1, pp. 267-276.

(٧٩ Auswaertiges Amt, Politische Archiv, Tuerkei 175 (e), Abteilung I A, Bd. 2.

(٨٠ Friedman, I. : Germany, Turkey and Zionism (1897-1918), Oxford, At the Clarendon Press, 1977, pp. 390-391.

(٨١ Sueddeutsche Wrate Vom 23.9. 1858, p.125, 14.10.1858, p. 161.

(٨٢ جريدة الاهرام ، القاهرة ، عدد ٢٧ حزيران ١٨٩٨ .

(٨٣ Sueddeutsche Warte Vom 27.4.1914, pp. 133-4.

(٨٤ Deutsche Kolonial Zeitung, Berlin, 1884, pp. 83-4.

(٨٥ Sueddeutsche Warte, 27,4.1911, pp. 131-2.

(٨٦ Carmel, A. : The German Settlers . . . p. 448.

(٨٧ Sueddeutsche Warte, 30.00. 1884, pp. 1-2.

(٨٨ Auswaertiges Amt, Politische Archiv. Bd. 25 a Nr, 135.

(٨٩ Carmel, A. : The German Settlers . . . p.p. 449-50.

(٩٠ المصدر نفسه ، ص ٤٥١ ــ ٤٥٤ .

(٩١ المصدر نفسه ، ص ٤٥٥ .

(٩٢ هواة صهيون حركة سياسية يهودية استهدفت تنظيم هجرة اليهود من اقطار اوروبا الشرقية الى فلسطين . وقامت بانشاء المستعمرات اليهودية الاولى في البلاد بين عامي ١٨٨١ و ١٩٠٤ .

حول هذه الحركة انظر :

جريس ، صبري . تاريخ الصهيونية ، ج ١ ، (١٨٦١ ــ ١٩١٧) ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٠١ ــ ١٤٢ .

(٩٣ Carmel, A. : The German Settlers . . . p.p. 455-8

(٩٤ المصدر نفسه ، ص ٤٦٠ ــ ٤٦٢ .

(٩٥ Die Welt, 13.10. 1911, pp. 1083-4

(٩٦ Carmel, A. : The German Settlers . . . p. 464